# الآثار النفسية في شعر النيل
# لحافظ إبراهيم بين الرمزية والواقعية
# ( دراسة تحليلية نقدية )


إعداد

د/ إبراهيم عبد المحسن إبراهيم أبو شعيشع

مدرس بقسم الأدب والنقد – كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنين بدمياط الجديدة

# الآثار النفسية لحافظ إبراهيم في شعرالنيل بين الرمزية والواقعية

إبراهيم عبد المحسن إبراهيم أبوشعيشع
قسم الأدب والنقد – كلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنين – دمياط الجديدة
البريد الإلكتروني : 1612030002@azhar.edu.eg

كشفت هذه الدراسة لشعر النيل عند حافظ ابراهيم عن الأثر النفسي على فكر ووجدان الشاعر وعلاقته به ومشاركته في الأحداث من حوله ، وأثره على المجتمع والاستعانة به في الكثير من القضايا والأزمات التي تخص الأمة المصرية ، وقد تجلت في هذه الدراسة بعض المشاعر والعواطف الوجدانية التي كانت معبرة أصدق تعبير عن نبض الأمة وواقعها الذي كانت تحياه آن ذاك . فلم يكن النيل عند شاعر النيل مجرد ظاهرة طبيعية ، أو مجرى مائي ، بل كان رمزاً للحضارة التاريخية للدولة المصرية ، ومعلماً من معالم الوطنية المصرية ، ولذلك فإن حافظ إبراهيم لم ينظر إلى النيل نظرة المتأمل في جمال الطبيعة وحسنها، وإنما كانت نظرته إليه في كثير من الأحيان على اعتبار أنه رمزٌ للدولة المصرية ومن أهم مقوماتها الطبيعية والتاريخية ، فجاء شعره صورةً واضحةً موحيةً عن طريق الإيماء والرمز والإيحاء حيناً ، أو عن طريق الواقع والحقيقة حيناً آخر .جاء حديث حافظ إبراهيم في نهر النيل طريقاً لعرض أحزانه وبث شكواه بسبب ما آل إليه حاله وحال المجتمع المصري آن ذاك من البؤس والشقاء، فوجد من خلال مخاطبته لنهر النيل صديقه الحميم وخليله الوفي الذي يشاركه في جلله ومصابه وبث همومه وأحزانه، فيفضي إليه بمكنون نفسه؛ لكي يخفف عنه ما أصابه من الهم والحزن .لم تكن المعالجة في هذا البحث معتمدةً على الظواهر الموضوعية وفقط ، بل اشتملت أيضا على ظواهر فنية منها ما يشتمل عليه المعجم الشعري كاختيار الألفاظ والأساليب وكذلك العاطفة والموسيقى بنوعيها الداخلية والخارجية .

الكلمات المفتاحية : الآثار النفسية – حافظ إبراهيم – شعر النيل – الرمزية – الواقعية.

# The psychological effects of Hafez Ibrahim in Nile poetry between symbolism and realism

Ibrahim Abdel Mohsen Ibrahim Abu Shaisha
Department of Literature and Criticism - College of Islamic and Arab Studies for Boys - New Damietta
E−mail: 1612030002@azhar.edu.eg

This study of Hafez Ibrahim's Nile poetry revealed the psychological impact on the poet's thought and conscience, his relationship with him and his participation in the events around him, his impact on society and the use of him in many issues and crises affecting the Egyptian nation. Some sentimental feelings and emotions that were expressive were evident in this study. The truest expression of the nation's pulse and the reality it was living at that time. For the Nile Poet, the Nile was not just a natural phenomenon or a watercourse, but rather it was a symbol of the historical civilization of the Egyptian state, and a landmark of Egyptian patriotism. Therefore, Hafez Ibrahim did not look at the Nile as one contemplating the beauty and beauty of nature, but rather his view of it was in many ways. Sometimes, considering that he is a symbol of the Egyptian state and one of its most important natural and historical components, his poetry presented a clear, suggestive image through gesture, symbol, and suggestion at times, or through reality and truth at other times. Hafez Ibrahim's speech on the Nile River came as a way to express his sorrows and broadcast his complaints because of what his condition had become. The state of Egyptian society at that time was one of misery and misery, and through his address to the Nile River he found his intimate friend and loyal friend who shared with him his grief and affliction and spread his worries and sorrows, thus revealing to him his innermost soul. In order to relieve him of the anxiety and sadness that afflicted him. The treatment in this research was not based on objective phenomena only, but also included artistic phenomena, including what is included in the poetic dictionary, such as the choice of words and styles, as well as emotion and music, both internal and external.

Keywords: psychological effects - Hafez Ibrahim - Nile poetry - symbolism - realism.

**المقدمة**

الحمد لله الذي عَلَّمَ بالقلم، عَلَّمَ الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على نبي الهدى الذي بعثه الله رحمة للعالمين، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

**وبعد.....**

فلا شك أنَّ الشعر العربي عند شعراء الرعيل الأول في العصر الحديث يمثل مِرآة واضحة، تعكس كثيراً من أحوال المجتمع المصري ومظاهر الحضارة المصرية، وقد جاء هذا البحث متناولاً لجانب من جوانب الإبداع الشعري، حيث ضرب فيه الشاعر/ حافظ إبراهيم بسهمٍ وافر في إبداعه لقصائده الشعرية؛ لأنه اشتمل على عاطفةٍ جياشة صادقة وفكرة جادة مؤثرة، تحمل للقارئ خطرات النفس المكلومة وآلام الروح الحزينة على ما إليه حال الشاعر في حياته وحال المجتمع المصري من حوله، ولذا عالج الشاعر حالته النفسية وقضيته التي يتناولها من خلال مخاطباته لنهر النيل في شعره، فقد مَرَّ الشاعر في أطوار حياته من بداية نشأته حتى مماته بمراحل نفسية سيئة، كان لها أبعد الأثر في عدم التوازن النفسي والاستقرار القلبي لديه، ومن ثم جاء هذا البحث بعنوان: (الآثار النفسية في شعر النيل لحافظ إبراهيم بين الرمزية والواقعية "دراسة تحليلية نقدية") .

وقد اعتمد الباحث في تناول موضوع بحثه على منهج التحليل النفسي والفني، الذي يتعامل مع العمل الأدبي بذاته وبنفس قائله؛ لتحقيق القيم الشعورية وغير الشعورية فيه، واستقصائها من الناحية الجمالية، والانغماس في النص الأدبي انغماساً كاملاً؛ لاستخراج مضامينه وخباياه، فهو يعني ببحث علاقة الشاعر أو الفنان ببيئته وتأثره بها، ويحتفظ حينئذٍ للمؤثرات العامة المحيطة به بأثرها النفسي على قلبه في التوجيه الإبداعي لشِعرِه والتلوين الفني لنقده .

وتأتي أهمية هذا الموضوع في الكشف عن خطرات النفس التي أصابها

الألم النفسي حول تأمُّلِها في أحوال المجتمع المتردية، فجاءت مناقشة هذا الموضوع من وجهة النظر النفسية، ولا أخفي أنني عندما ركنت إلى مناقشته، أصابني الشَّكُّ في أن يكون هذا الموضوع قد قُتِلَ بحثاً، وأفاض فيه الدارسون، ولكن عندما خُضْتُ غِمَارَه، وجدت أن بعض الباحثين قد تحدث فيه عن طريق وصف النيل أو صورته أو استلهامه لمواطن الذكريات في أحضانه، ثم استقر في نفسي أن طريقه سيكون مُذَلَّلاً ميسوراً، ولكنني فوجئت بخلاف ذلك؛ إذ إن معالجتي لهذا الموضوع ركنت إلى الجانب النفسي عند الشاعر/ حافظ إبراهيم؛ لأن التعبير الإبداعي في النظم الشعري عند حافظ قد تميز فيه عن غيره من الشعراء، وهذا يوضح أن مقدار التأثر بالمعاناة النفسية والحسية كان شديداً عند الشاعر، لذلك أَحَبَّ الشاعر أن يعيش في أحضان النيل بخواطره وعواطفه ومشاعره قبل جسده؛ بسبب هذه الروافد النفسية السيئة كبؤسه وشقائه حيناً، وكهيئة بلاده ونِيلِها حيناً آخر، تلك الروافد النفسية التي كانت عاملاً رئيساً في تغَيُّر حاله؛ ليصبح من أعظم الشعراء الذين يدافعون وينافحون عن حالهم وحال مجتمعهم .

وقد عمد الباحث إلى قصائد النيل في شعر حافظ إبراهيم، فتناولها عن طريق الإيحاء والرمز للنيل حيناً، وعن طريق الحقيقة والواقع حيناً آخر؛ وذلك بهدف الكشف عن الجمال الفني والمضموني في شعر النيل عند حافظ إبراهيم؛ ليكون المِشْعَلَ الذي يهدي المُتَشَوِّقِين إلى منابع الإلهام ومصادرها، والمتطلعين إلى القِيَم الجمالية فيه .

وقد وَجَدَ كثيرٌ من الدارسين في هذا الإبداع الشعري مجالاً رحباً للدرس النقدي، فعالج كل منهم بطريقة تختلف عن غيرها، فمنهم من تناول صورة النيل، ومنهم من تناول الذكريات في أحضانه...إلخ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: (حافظ إبراهيم شاعر الأحزان وحامل هموم الإنسان" دراسة

وصفية تحليلية نقدية")، تأليف دكتور/ يوسف الحشكي، ط: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع ٢٠١١ م، وكذلك (صورة النيل في شعر حافظ إبراهيم دراسة تحليلية نقدية) للدكتور/ جمال عبد النبي حسانين، بحث منشور لنيل درجة الأستاذية في مطبعة الأهرام، القاهرة ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، (حافظ إبراهيم شاعر النيل والوطنية)، إعداد: هاني الخير، ط: موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٩ م، إلى غير ذلك من الكتب التي تناولت حياته ولكن بصورة أبعد ما تكون عن الجانب النفسي الذي غَلَّفَ فؤاده .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي وِفق خطة جاءت في ثلاثة فصول، يشتمل الأول والثاني واللذان يختصان بمناقشة القضايا الموضوعية، على عدة مباحث لكل منهما، أما الثالث والذي يختص بالجانب الفني والإشارة في مباحثه إلى شيءٍ من الموازنة بين حافظ وغيره من الشعراء الذين تناولوا نهر النيل في شعرهم، فيشتمل على أربعة مباحث، ويسبق هذه الفصول المقدمة والتمهيد، ثم تأتي في النهاية الخاتمة، وثبت بالمصادر والمراجع والفهرس .

**أولاً: المقدمة:** وفيها أوضح الباحث أهمية الموضوع ومنهجه ودوافع اختياره وخطته .

**ثانياً: التمهيد:** وجاء بعنوان (النيل: الماهية، والدوافع)، وتناول (أثر النيل في الحياة المصرية) .

**ثالثاً: الفصل الأول:** نهر النيل وأثره النفسي على قلب حافظ إبراهيم .

ويشتمل على مبحثين: ( مواطن عامة – مواطن خاصة ) .

**المبحث الأول:** المواطن النفسية العامة، وتشتمل على عدة ظواهر :

( مأساة الاحتلال على المصريين – المكر والمراوغة والافتراء – انتقاد مآخذ المجتمع المصري)

**المبحث الثاني:** المواطن الخاصة، وتشتمل على عدة ظواهر :

( نشأته – ارتحاله واغترابه – التعلق العاطفي بأمته – افتقاره ونكباته )

**رابعاً: الفصل الثاني:** نهر النيل بين الرمزية والواقعية في شعر حافظ إبراهيم، ويشتمل على مبحثين :

**المبحث الأول:** الرمزية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم .

**المبحث الثاني:** الواقعية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم .

**خامساً: الفصل الثالث:** من الجوانب الفنية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم، ويشتمل على عدة مباحث:

**المبحث الأول:** التجربة الشعرية . **المبحث الثاني:** المعجم الشعري .

**المبحث الثالث:** الصورة الفنية . **المبحث الرابع:** الموسيقى الشعرية .

**سادساً: الخاتمة،** وأخيراً: ثبت بالمصادر والمراجع، حيث قام الباحث بترتيبها وفق الترتيب الهجائي، ثم فهرس محتويات البحث، (والله من وراء القصد، وهو نعم الهادي إلى سواء السبيل)، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## التمهيد

### ( النيل: الماهيَّة، والدوافع )

إن الشاعر قبل أن ينتوي نَظْمَ شعره، قد يَمُرُّ ببعض العوارض النفسية التي لا يمكنه الفرار منها، هذه العوارض النفسية قد تكون حيناً إيجابية وحيناً آخر سلبية؛ إذ إن الشخصية الشاعرية المرهفة عند الفنان وخصوصاً الشاعر، تختلف عن الشخصيات البشرية من حوله، وذلك لأن درجة التأثير العاطفي والانتباه الشعوري عند الشاعر تكون أعلى قدراً وأشد عمقاً مما عداه من الشخصيات البشرية الأخرى، وفي هذه الحالة وخصوصاً إذا كان لها أثر سلبي على قلب الشاعر وعقله ووجدانه، فإنه يبحث عن نافذة ومخرج يداوي فيه جروحه وآلامه، التي نجمت عن الضغط النفسي الذي يعاني منه في صراعه مع حياته التي يحياها بشتى ألوانها وصورها.

ولمَّا كان الشعر مرتبطاً بالحالة النفسية والشعورية لدى الشعراء، كان أنسب سبيل لتعويضهم عمَّا أصابهم، أن يلجأوا في مخاطباتهم الشعرية إلى بعض الركائز الأساسية؛ لتكون تسرية وتسلية لهم عما يشعرون به، سواء أكان هذا الإحساس والشعور في جانب المِنَح أم المِحَن، فيُفَرِّغون شحناتهم العاطفية من خلال شعرهم، ويَسْرَحون بخيالهم إذا أرادوا أن يُفصحوا عن مكنون سِرِّهِم، فإذا تحدثوا عن الحب فإن حديثهم يكون مؤنساً، وإذا تحدثوا عن الحزن والكدر، تكون حكاياتهم موجعةً مملوءةً بانفعالات خفية، وبهذا يكون التعبير الشعري هو السبيل الوحيد لخروجهم من دائرة أتراحهم إلى دائرة أفراحهم كما عند معظم الشعراء .

وما رأيناه عند شاعر النيل/ حافظ إبراهيم الذي نحن بصدد دراسته، إنما هو خير دليل على ذلك، فقد اتخذ حافظ إبراهيم من حديثه في نهر النيل سبيلاً لبث شكواه، فجعل منه الصديق الحميم، والخليل الوفي الذي يفضي إليه بمكنون سِرِّه، من خلال صورة شعرية واضحة، جاءت في شعره عن طريق الرمز حيناً والواقع

والحقيقة حيناً آخر، فهو يمثل رافداً من الروافد المهمة للحياة في مصر؛ إذ إنه كان وما زال فيضاً زاخراً بالنماء والحياة، يحمل إليها الخير الوفير، وقد تعددت مآثره ومحاسنه، ففاق ما سواه من أنهار، وإذا ما تلمسنا بعض هذه المناقب والمميزات التي قد يتعذر علينا الإلمام بالكثير منها لوجدنا أنه حظي بشرف الذكر في القرآن الكريم في مواضع عدة، فلَمْ يَرِدْ في القرآن الكريم لفظ نهر إلا وأريد به نهر النيل، وقد ورد ذِكْرُه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: " وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ " [١]، والمقصود باليم هنا نهر النيل، وفي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج قال: " ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نَبْقُها [٢] مثل قِلالِ[٣] هَجَر، وإذا ورقها مثل أذان الفيلة (قال: هذه سدرة المنتهى) وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران، فالنيل والفرات " [٤]، ولذا كان لزاماً على

(١) سورة القصص، الآية: ٧ .

(٢) النَّبِق : بفتح النون وكسر الباء وقد تُسَكَّن: ثمر السدر، وواحدته نبقة، وأشبه شيء به العِنَّاب قبل أن تشتد حُمْرَتُه .

(٣) القِلال: جمع قُلَّة الحب العظيم وهي بالحجاز، و(هجَر) قرية قريبة من المدينة، وهي ليست (هجر)البحرين وكانت تعمل بها القلال تأخذ الواحدة منها مزادة من الماء، سميت قلة: لأنها تقل الماء أي ترفع وتحمل .

(٤) ينظر: فتح الباري على شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ج: السابع، ص: ٣٦٧٤، ط: دار الريان للتراث ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦م .

الباحث قبل أن يطرق باب هذا الموضوع أن يلقي الضوء على أثر هذا السبيل الذي جعله الخالق سبحانه شريان الخير والنماء والرقي والازدهار للأمة المصرية عن طريق :

**أثر النيل في الحياة المصرية :**

لقد وهب الله سبحانه هذا النيل لمصر؛ ليكون باعثاً للجمال في ربوعها، ومنشئاً للحُسْن بين جنباتها، فهو عنوان الحياة، ورمز العطاء، وضمان البقاء، ومستودع الخير" والسبب الفعَّال في صيانة الأرواح من مهالك القحط والجدب، وانتشار الفاقة واستحكام الضِّيق" [(١)]، ولو لم يجعل الله هذا النيل لمصر؛ لكانت حياة المصريين مليئةً بالجدب والقحط والجفاف، ولكن الله سبحانه جعل طبيعة الأرض المصرية ذات عيون تتدفق، وشلالات تنحدر، وسماء تنهمر، وإذا رجعنا إلى الوراء وأمْعَنَّا النظر في الفتح الإسلامي لمصر على يد (عمرو بن العاص)، لوجدنا أنه أراد أن تكون الجزية المفروضة على أهل مصر مرتبطة بزيادة النيل ونقصانه، فكان إذا تناهى النيل في زيادته قُدِّرَتْ ألف ألف، وإذا نقص النهر عن غايته رُفِع عنهم بقدر ما نقص [(٢)].

ولمَّا كان الأمر على هذا النحو، وكان للنيل أثره الواضح في كل مناحي الحياة – بصفة عامة– كالضوء في الشمس، والهواء في الكون، والعبير في الزهر، جاء ارتباط حياة المصريين بنهر بالنيل ارتباطاً وثيقاً قويا، فهي –أي مصر– هبة النيل ومِنْحَتُه كما قيل قديماً، فقد وهبَتْ له كلَّ حُبِّها وتقديسها، وبرز

(١) النيل في عهد الفراعنة، أنطوان زكري، ص: ٨، ط: الأولى، مكتبة مدبلولي، القاهرة ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م .

(٢) ينظر: تاريخ الامم والملوك – تاريخ الطبري – للامام الفقية المفسر المؤرخ/ ابوجعفر محمد بن جرير الطبري، ص: ٢٢٤– ٣١٠، اعتني به أ/ أبوصهيب الكومي، ط: بيت الأفكار الدولية، د/ ت، بتصرف .

هذا الحب وهذا التقديس منذ فجر التاريخ حتى عهدٍ قريبٍ في صور شتى ومظاهر متعددة [١] .

ومن ثم وقف الشعراء – بصفة عامة– من النيل موقفاً نبيلاً، فقد عاشوا في مصر على ضفاف النيل، ينعمون بمياهه العذبة، وزروعه وثماره الناضجة، وجاء وَصْفُ القرآن الكريم لمصر بأنها عبارة عن "جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ "[٢]، وقد نَعِمَ الشعراء بهذه الجنات، يعيشون فيها بأجسادهم، ويطلقون فيها أخيلتهم وعواطفهم؛ للتعبير عن مواطن الجمال فيها وفي نيلِها، فتتكون لديهم حاسة الجمال، ويتعمقهم الشعور بما خصَّ الله تعالى ديارهم به من هذا النعيم الذي يَقْصُر أيُّ وَصْفٍ عن تصويره، وكان من الطبيعي أن يتردد ذِكْرُ النيل على ألسنة الشعراء، وذِكْرُ مشاهدِ رِيَاضِهِ وسُفُنِه، وغير ذلك مِمَّا له صلة بهذا النهر الخالد [٣] .

فهذا هو (ابن نباتة) أمير شعراء المشرق، الذي اعتبر أن نهرَ النيل مصدرُ وحيه وإلهامه حينما يفارق مصر إلى بلاد الشام، وفي هذه الحالة إذا بالشوق يتملكه، وبالحنين يتغلغل في أعماقه، وبالأنين يفيض به، فلم يَجِدْ حينئذٍ بُدَّاً أمامه إلا أن يتغنى بمصر ونيلها وهو بعيد في بلاد الشام[٤]، فيقول على وزن (بحر الطويل)[٥] :

(١) ينظر: النيل في عصر المماليك، د/ محمود رزق سليم، ص: ٤، ط: دار القلم، القاهرة ١٩٦٥م.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٥٨ .
(٣) ينظر: عصر الدول والإمارات، د/ شوقي ضيف، ص: ٣٢٢، ط: دار المعارف، د/ ت .
(٤) ينظر: ابن نباته المصري أمير شعرا المشرق، د/ عمر يوسف باشا، ص: ٣٧٢، ط: الثانية، دار المعارف د/ ت ، بتصرف .
(٥) ديوان ابن نباته، تأليف: محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المصري، ص: ٩١، جمع: محمد بن ابراهيم ابوالبقاء بدر الدين الانصارلي البشتكي، ط: الأعلام، الضوء اللامع، د/ ت .

وإنِّي لَمُشْتاقٌ إلى ظِلِّ رَوْضَـــةٍ على النيلِ أرْوِي العَيْشِ منها عن النَّضْرِ
لَئِنْ حَثَّني بابُ البريدِ إلى مِصْـرِ لقــد حَثَّني بــابُ الزيادةِ في النَّذْرِ
إلى مِصْرَ يَحْلُو نِيلُها مِخْصَبُ الثَّرَى فيُغْني الوَرَى فِي الحـالَتَيْنِ عن القَطْـرِ

ثـم يتملكـه الحنـين والشـوق ، فلـم يجـد سـوى دمـوع عينـه ليـروي ظمـأه؛ كي يستشفع بها من أجل العودة إلى مصر، فيقول على وزن (بحر البسيط التام) [1] :

وهَلْ إلى أرْضِ مِصْرَ زَوْرَةٌ لِشَجٍ بســائلِ من دُمُــوعِ الشَّوْقِ مِلْحَاحِ
وهل أبـاكـرُ بحْــرَ (النيل) مُنْشَرِحاً فأشْرَبُ الحُلْوَ من أكوابِ مَلاحِ

لقد وقف الشعراء مفتونين بجمال النيل، مسحورين بجلاله، مبهورين بفيضه وعطائه، فأشادوا وتغنوا به، وعبَّروا عن شغفهم بحبه، وتعلقهم بوصفه، ومن هؤلاء أيضاً:(البهاء زهير) الذي هام شوقاً وحنيناً إلى مصر وقت وجوده مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي (الفرات)، فيقول على وزن (بحر الخفيف التام) [2] :

حَبَّذا النِّيلُ والمَرَاكِبُ فِيه مُصْعِدَاتٍ بنا ومُنْحَـــــدِرَاتِ
ولَيَالٍيّ في الجزيرةِ والجِيـ ـزَةِ فِيمَا اشْتَهَيْتُ من لَـــذَّاتِي
بَيْنَ رَوْضٍ حَكَى ظُهُورَ الطَّوَاوِيـ ـسِ وجَوٍ حَكَى بُطُون البــزَاةِ
حيثُ مَجْرَى الخليجِ كالحَيَّةِ الرَّقْـ ـطاءِ بَيْنَ الرِّيَاضِ والجَنّـــاتِ
هات زِدْنِي مِن الحديثِ عن النِّيـ ـلِ ودَعْنِي مِن دِجْلَةٍ والفُـراتِ

لقد نـال نهر النيل عناية فائقة في الشعر العربـي –بصفة عامة– والشعر المصري –بصفة خاصة–، فكان مصدر وَحْيٍ وإلهام، يُنَفِّسُون من خلاله ما

(١) ديوان ابن نباته، تأليف: محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المصري، ص: ٦٦ .
(٢) ديوان البهاء زهير، ص: ٥٢، ط: دار بيوت للطباعة والنشر ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م .

يعتريهم من البؤس والشقاء، وما يصيبهم من الألم النفسي بسبب أحوالهم وأحوال بلادهم الاجتماعية، فهذا هو (أحمد شوقي) الذي يستلهم روح الوطن طوال حياته، فيتغنى بمصر، ويذهب مع النيل مذهباً بعيداً، ويجري مع حُبِّهِ له شوطاً طويلاً يضع في نهايته دليلاً على هذا الحب، وأمارة على هذا العشق، فيصنع له نشيداً جميلاً، يتغنى به كلُّ وطني عاشق لهذا النهر، كاشفاً عن إخلاصه لمصر ونيلها، فيشيد بمفاخرها، ويتحدث بعظمتها، ووحدة نيلها، ويلقي تحية خاصة لمصر ونيلها وأهرامها، فيقول على وزن (بحر البسيط التام) [١] :

**يا راكِبَ الرِّيحِ حَيِّ النِّيلَ والهَرَمَـا وعَظِّمِ السَّفْحَ مِنْ سَيْنَاءَ والحَرَمـا** [٢]

**وَقِفْ على أثَرٍ مَرَّ الزَّمانُ بـــــهِ فكـــان أثْبَتَ مِنْ أطْوَادِهِ قِمَمَـا**

**واخْفِضْ جِنَاحَكَ فِي الأرضِ التي حَمَلَتْ مُوسَى رَضِيعاً وعيسى الطُّهْرَ مُنْفَطِمَا**

وهكذا احتفى الشعراء ومنهم حافظ إبراهيم بنهر النيل على مر العصور، فـألِفُوه وعَشَـقُوه وأحَبُّـوه وخـاطبوه خطـاب إنسـان يعايشـهم، وكأنـه الصـديق لهـم، يفرحون بمجيئه، ويعاتبونه عند غيابه .

(١) الشوقيات، شعر أحمد شوقي في المجلد الأول، جـ: الأول، ص: ٢١٥ .

(٢) السفح: عرض الجبل، والحرم: ما لا يحل انتهاكه .

## الفصل الأول

## نهر النيل وأثره النفسي على قلب حافظ ابراهيم

مما لا شك فيه أننا حينما نمعن النظر في شعر حافظ في نهر النيل، سنجد أنفسنا أمام شخصيةٍ شاعريةٍ لها ظروفها الخاصة، فمع استنشاقه لنسمات النيل العليلة، ونشأته التي جاءت فوق مياهه الجارية، ورؤيته لجمال الطبيعة وسِحْرِها الأخاذ، إلا أنه كان مشغولاً بحياته البائسة وحياة المجتمع من حوله، فإذا تذكر حياة الشقاء والعنت التي عاشها، سواء في جانبها الوطني من طلب الجلاء، وطرد الاحتلال الغاشم عن مصر، أو جانبها الاجتماعي أو الإنساني، لمْ يَجِدْ بُدَّاً أمامه في التخفيف عن سلواه إلا بمصاحبته لنهر النيل .

هذا النيل الذي كان سبباً من أسباب وجود علاقات حميمة بين أبناء الوطن الواحد، بل بين مصر وغيرها من البلدان العربية الأخرى، جعل اهتمامه زائداً بهذا الرمز العظيم لمصر، والذي يتمثل في نِيلِ الخير والوفاء والرخاء والازدهار، ومن ثم تكررت لفظة (النيل) في ديوانه الشعري، ما يقرب من (إحدى وتسعين مرة) ما بين صورة رامزة حيناً، وواقعية حيناً آخر، وإذا حاولنا أن نبحث عن المواطن التي استمد منها حافظ إبراهيم[1] لفظة النيل في شعره؛ لتبين لنا أن تلك المواطن تتدرج

(١) شاعر النيل: هو محمد حافظ الشهير بحافظ إبراهيم، أبوه مواطن مصري صميم هو(إبراهيم فهمي)، وأمه السيدة (هانم ابنة أحمد البرصلي) من أسرة تركية الأصل، والذي لقبه بشاعر النيل: هو الشيخ(علي يوسف) صاحب جريد المؤيد، ولقبته جريدة اللواء صوت الحزب الوطني أيام مصطفى كامل بشاعر الوطنية، ينظر:(حياة حافظ إبراهيم الشاعر الثائر، أ/ أحمد محفوظ، ص: ٥٩: ٧٢، ط : مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، القاهرة د / ت)، وقد اختلف الرواة في عام مولده، فقيل: إنه ولد سنة ١٨٧٠م، وقيل: سنة ١٨٧١م، وقيل: سنة ١٨٧٢م، إذ لا توجد وثائق رسمية تؤكد تاريخ ميلاد حافظ إبراهيم، ولكن حافظ يؤكد على مولده في فبراير سنة ١٨٧٢م، مع أن المقربين منه لا يوافقونه في ذلك، فهم يرون أنه أكبر سناً مما يَذكر، ويُقَدِّمُون على ذلك أدلة منطقية يمكن التعويل عليها، ينظر: (حياة حافظ إبراهيم الشاعر الثائر، ص: ٦) .

ففي جنوب مصر قرب قناطر ديروط كان مولده، تفتحت عينه على مياه النيل الرقراقة، فكان ذلك إرهاصاً لطيفاً بأن يلقب بشاعر النيل، أسمته أمه (محمد حافظ) إلا أنه لم يكن يُعرف إلا (بحافظ، وشاعر النيل، وشاعر الشعب) اللقب الذي بَقِيَ له ، واشتهر به من بين ألقاب أخرى خُلِعَتْ عليه، ينظر: (حياة حافظ إبراهيم الشاعر الثائر، أ/ أحمد محفوظ، ص: ٦) .

لم يُقَدَّر لحافظ إبراهيم في نشأته أن ينعم طويلاً بعطف أبيه، وحُسْن رعايته، فقد توفى والده وهو في الرابعة من عمره، فانتقلت به أمه إلى القاهرة؛ لتعيش في كنف أخيها المهندس(محمد نيازي)، وفي القاهرة قُدِّرَ له أن يعيش حياة جديدة بعد وفاة أبيه وتحت رعاية خاله، فالتحق بالمدرسة الخيرية بالقلعة؛ ليتعلم القراءة والكتابة وبعض الحساب، ثم بمدرسة الابتدائية، ثم بمدرسة (المبتديان) فالمدرسة الخديوية، حتى انتقل مع خاله إلى مدينة طنطا التي كان يعمل فيها مهندسا للتنظيم( ينظر: حياة حافظ إبراهيم شاعر الشعب وشاعر النيل، د/ سيد نوفل، ص : ١٧، ط: الدار المصرية اللبنانية للطباعة، القاهرة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ) .

وفي بيت خاله وجد نفسه بلا عمل، فساءه الأمر، وأكثر من التبرم، ففَكَّر في المحاماة، وهذه المهنة في ذلك الوقت لا تحتاج إلا إلى البيان القوي، والحجة الواضحة، فرأى في نفسه لذلك العمل ميلاً ؛ لسرعة خاطره، وطلاقة لسانه، ولكنه راح ينتقل من مكتب إلى مكتب، لا يعرف في المهنة ثباتاً ولا استقراراً، فخاب أمله وأخفق فيما سعى إليه، وعندئذ راودته فكرة الحياة العسكرية، ورَجَا أن يُحَالفه فيها الحظ الذي لم يحالفه في غيرها، ينظر: (الموجز في الأدب العربي وتاريخه، أ/حنَّا الفاخوري، ص: ٥١٥، ط: الرابعة، دار الجيل، بيروت، د/ ت ) .

ثم انتقل حافظ إلى القاهرة بعد ذلك، والتحق بالمدرسة الحربية عام ١٨٨٨م، وأخذ يُمَنِّي نفسه فيها بمنصب حكومي يَضْمَن له فيها الرزق، ثم يقول الشعر بعد ذلك فَيُغَنِّي فيه لنفسه ولإخوانه، وظل في المدرسة إلى أن تخرج منها تقريباً في سِنِّ العشرين سنة ١٨٩١م، ينظر: (مقدمة ديوان حافظ ابراهيم، أ/ أحمد مين، ص: ١١، ط: دار العودة، بيروت) .

تخرج ضابطاً في الجيش برتبة ملازم ثان ١٨٩١م، وعُيِّن في نظارة الحربية، وظل بها ثلاث سنوات، ثم نقل إلى دائرة البوليس في وزارة الداخلية في بني سويف ثم في الإبراهيمية؛ لأن مدرسة البوليس لم تكن أنشئت بعد، فكان يؤخذ للبوليس من الحربية، ثم أعيد للحربية في سنة ١٨٩٦م، وسافر منها إلى السودان في الحملة الأخيرة بقيادة اللورد (كتشنر)، وهنا تبدأ مرحلة جديدة في حياة حافظ في السودان، حيث إن الحياة لم تكن طيبة له هناك، فعانى من تسلط رؤسائه الإنجليز، ومن معيشته القاسية في الخيام حيث وهج الشمس الحارق، وجفاء العيش، ثم معايشته لزملائه الذين أجبرته الظروف على مجالستهم مع ما بينه وبينهم من تنافرٍ في الطباع والميول، حتى إنه ليفكر كل يوم في الاستقالة رغم

تحت مبحثين، منها ما هو (عام)، ومنها ما هو (خاص)، وفيما يلي بيان ما يندرج تحت كل موطن من هذين الموطنين :

**أولاً: المواطن النفسية العامة .**

**ثانياً: المواطن النفسية الخاصة .**

حاجته الشديدة لراتبه، فيتحسر على ليالي الأنس بمصر وجوها البديع، وعيشها الناعم، وأصدقائه الأوفياء، كما يدل على ذلك شعره الذي نتعرض له ونستشهد به، ومما زاد من سوء حاله في السودان كراهية (كتشنر) له؛ إذ إن حافظ إبراهيم كان غيرَ مَعْنِيٍ بنظام سواء أكان في مظهره أم في عمله، مما تسبب في كراهية رئيس فرقته (رفعت بك) له ورَفْعِ التقاريرِ السيئةِ عنه، وكان حافظ بدوره يعمل الأراجيز المُسِيئة في ذَمِّه؛ ليتغنى بها هو وأصحابه، وما زال كذلك حتى جاءت ثورة السودان سنة ١٨٩٩م، واتُّهِمَ فيها حافظ إبراهيم من بين ثمانية عشر ضابطاً، فحوكموا وأحيلوا إلى الاستيداع، وفي القاهرة وبعد العودة من السودان سَعَى جاهداً أن يحصل على وظيفة تُدِرُّ عليه دخلاً إضافياً، يُمَكِّنه من العيش الكريم؛ لأن راتبه التقاعدي كان ضئيلاً لكنه أخفق في ذلك أيضاً، وظل حائراً يُصارع تقلبات الحياة الواسعة، يتكسب بشعره تارة، وتمتد إليه بالعون يَدُ الوجهاء والأصدقاء تارة أخرى، ينظر: (مقدمة ديوان حافظ ابراهيم، أ/ أحمد أمين، ص: ١٣، ١٤، بتصرف).

ثم حانت ساعة **وفاته** في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس الموافق: الحادي والعشرين من يوليو سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف، وبذلك فقَدَتْ مصرُ لساناً ناطقاً من ألسنتها، وعلماً وشاعراً من كبار أعلامها وشعرائها بعد إحالته إلى المعاش بأربعة أشهر ونصف، ينظر: (مقدمة ديوان حافظ ابراهيم، ص : ١٥، ١٦) .

## المبحث الأول

## المواطن النفسية العامة

حينما وجد حافظ إبراهيم نفسه يعيش في اكتئاب ويأس شديدين بسبب الفراغ القاتل، استفحلت حالته النفسية سوءاً، وازداد سخطه وغضبه، وأخذ يَنْظِم شعراً يُصَوِّر فيه حاله وحالَ المجتمع من حوله، فصَوَّر آمالَ الأمة وآلامَها، وهو يتألم لهذه الظواهر البائسة التي عمَّت البلاد والعباد، واكتوى بنارها عامة الشعب والفقراء كحالهم في كل زمان ومكان، ومن هذه الظواهر :

**أولا: مأساة الاحتلال على المصريين :**

لقد احترق قلب الشاعر لِمَا آلَ إليه حالُ مجتمعه ومعاناته بسبب الاحتلال البغيض؛ حيث أُطْبِقَتْ عليهم الظلمات، وذاقوا مرارة الحرمان والمسغبة والجوع في ظله، مِمَّا تسَبَّبَ للشاعر في ألمٍ نفسيٍ كبير كان له أثره السلبي السَّيِّء على قلب حافظ إبراهيم، فجاء حديثه عن هذا الموطن(مأساة الاحتلال)؛ نظراً لما يقاسيه المصريون آنذاك من ظلم وطغيان، وكانت هذه المأساة من الظواهر العامة التي شاعت وانتشرت في المجتمع المصري وقتئذ؛ حيث عاش المصريون في عصرٍ طغى فيه الاحتلال عليهم، فكمَّم أفواههم، وكبَتَ حرياتهم، ونفى أبطالهم ومثقفيهم، وقتل آمالهم وأحلامهم، فكان لزاماً على أهل الرأي والفكر ومنهم الشعراء أن يدافعوا ولو بالكلمة عن أرضهم وعرضهم عن طريق نشر أمجادهم الحضارية، وعراقة شخصيتهم المصرية الأصيلة، فقال حافظ معبراً عن هذه الأصالة المصرية، وعن مَجْدِ نيلها وشموخه، بعد أن اكتَوَى بنار الظلم من احتلال المستعمر لبلاده على وزن (بحر الكامل التام)[1]:

**للنِّيلِ مَجْدٌ في الزَّمانِ مُؤَثَّلٌ  مِنْ عَهْدِ آمُونِ وعَهْدِ فتاحِ**

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٠٠ .

فَسَلِ العُصُورَ بهِ وسَلْ آثارَهُ ... فِي مِصْرَ كَمْ شَهِدَتْ مِن السّيّاحِ

يا صاحِبَ القُطْرَيْنِ غيرَ مُدَافِعٍ ... ما مِثْلُ سَاحِكَ فِي العُلا مِنْ ساحِ

لَمْ يَبْدُ نُورٌ فَوْقَ نُورِ يُجْتَلَى ... كالتَّاجِ فوق جَبِينِك الوَضَّاحِ

ولمَّا كان الشرق العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، يتطلع إلى التَّحَرُّر من أغلال القيود التي فرضها عليه الاستعمار، بعد أن عاش فترة حالكة مظلمة، غَشِيَتْهُ فيها سُحُبُ الضعف والخمول، كان لابد للشعراء أن يَحْمِلوا العِبْءَ الأكبر في استنهاض الهمم؛ لإيقاظ الشعوب من سباتها ونومها العميق الذي طال ليله؛ إذ إن" الصحافة في ذلك الوقت كانت لا تزال غَضَّةَ العود، لا تقدر على المجابهة، ولا تَقْوَى على النهوض بهذه الرسالة " [1] .

وسرعان ما لبَّى شعراء مصر نداءها، فجاء حافظ معبراً عن روح هذه الفترة، ومُستجيباً للنضال من أجل المجتمع، فقد وَجَّه رسالة إلى هذا الاحتلال الإنجليزي الغاشم الذي نهب ثروات البلاد والعباد، ووقف مُتَحَدِّياً لِبَغْيِهِم في أن يفعلوا ما يَحْلُوا لهم، داعياً إياهم على سبيل السخرية أن يبالغوا في ظلمهم وجورهم، وأن يَبْلغوا من أذاهم أقصى مدى، ومن ثم يُنَاظرهم بكلماته القاسية قائلاً: إنكم لو استطعتم أن تُحَوِّلوا تدفق النيل عن المصريين، أو أن تحجبوا ضوء الشمس عنهم، أو أن تطمسوا النجم عن ظهوره وتألقه، أو أن تحرمونا هواء النسيم، مع أنكم لستم بمستطيعي ذلك، فإن المصريين بحضارتهم الشامخة ومجدهم التليد على عهدهم باقون، حتى ولو أصبحوا بين أطباق التراب عظاماً ورفاتا، ولذلك جاءت" الأبيات في مجملها من أبلغ ما قيل في المواجهة والتحدي والصمود أمام الشدائد مهما عظمت"[2]، فيقول على وزن (بحر الخفيف التام) : [3]

(١) ينظر: حافظ إبراهيم شاعر النيل ص: ١٥٢، بتصرف .

(٢) شعراء الوطنيه في مصر ،عبدالرحمن الرافعي، ص: ١٣٤، ط: الثالثة، دار المعارف ١٩٥٤م .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٠٨ .

حَوِّلُوا النِّيلَ واحْجُبُوا الضَّوْءَ عنَّا واطْمُسُوا النَّجْمَ واحْرِمُونا النَّسِيما
وامْلأوا البَحْرَ إنْ أرَدْتُمْ سَفِينـــا وامْلأوا الجـــوَّ إنْ أرَدْتُمْ رُجوما [1]
وأقِيمُوا للعَسْفِ في كُلِّ شِبْرِ كُنستبلاً بالسَّوْطِ يَفْرِي الأدِيما
إنَّنَا لنْ نَحُولَ عن عَهْدِ مِصْـــر أوْ تَرَوْنا في التُّرَبِ عَظماً رَمِيمـا

ثم يبعث الشاعر برسالةٍ إلى ( مصطفى كامل)، يخاطبه فيها بتنفيذ وعده، ويبشره بأن مصر على عهدها من المواجهة باقية، وعلى طريقها من التحدي ثابتة، لا تفتر عزيمتها، ولا تلين إرادتها، رغم كيد الكائدين مهما طال بهم الأمد، فهم– أي المصريون– على عهدهم من البسالة والوقوف في وجه الباطل؛ لكي ينالوا عزتهم واستقلالهم، حتى يتأكد لرمز مصر الخالد وهو النيل أن أبناءه جديرون بخيره، ولكي تزدهر أهرام مصر بهذا الغرس الجديد الذي رُوِي بماء العزة والكرامة، فيقول على وزن (بحر البسيط التام) [2] :

لبّيْكَ إنَّا علَى ما كنتَ تَعْهَدُهُ حتَّى نَسُودَ وحتَّى تَشْهَدَ الأمَمُ
فيَعْلَمَ النيلُ أنَّا خيرُ مَنْ وَرَدُوا ويَسْتَطيلَ اختيالاً ذلك الهـرمُ

فهذا الإكثار من ذِكْرِ النيل ومخاطباته إياه في شعره، جعله في أعين المصريين رمزاً عظيماً لهم، ومَعْلماً من أهم معالم وطنهم، ورافداً من أغنى روافد عظمتهم، حتى رأينا ما يؤكد ذلك من تواترِ أقوال المؤرخين حين رَدَّدُوا كلمة (هيرودوت) الشائعة (مصر هبة النيل)، وذاع هذا القول ذيوع المثل السائر حتى غدا له فِعْل السِّحْر في النفوس [3] .

(١) الرجوم : الشهب وهي ما يظهر في السماء كأنها نجوم تتساقط .
(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٦٢ .
(٣) ينظر: النيل في الأدب المصري، د/ نعمات أحمد فؤاد، ص:٣١٣، ط: دار المعارف ١٩٦٢م، بتصرف .

**ثانيا: المكر والمراوغة والافتراء :**

لم يكن الاحتلال البغيض والمستعمر الجاثم على الأرض الوطنية المصرية، الناهب لخيراتها ومقدراتها مُحِبّاً لأهلها، بل كان كارهاً لهم، ناقماً عليهم، عازماً على الاستيلاء على خيراتهم وأموالهم وأرزاقهم، حتى وإن أوْهَمَ وأبْدَى في بعض الأحيان أنه جاء لإصلاح ما فَسَدَ في بلدهم، ولكي يرفع من شأنهم وشأن بلادهم، وذلك عن طريق حِيَلِ هذا المستعمر الماكرة الخبيثة بإيحائه وافتراءاته المستمرة بأن مصر لا تصلح للصناعة، حتى وَقَرَ في بعض الأذهان أنها بلد زراعي؛ لأن الزراعة عمادها النيل، وقد لقي هذا العامل إقبالاً شديداً من المصريين على زراعة القطن وتصديره إلى الخارج؛ بسبب ما أفاض به المستعمر الماكر الخبيث من حيلٍ خبيثة على المصريين، مُوهِماً إياهم بأن بلدهم لا تصلح إلا للزراعة وفقط، وما تلقاه المصريون آنذاك من أموال طائلة، ومن هنا يؤكد حافظ إبراهيم على أهمية نيلهم وأرضهم، فيقول على وزن (بحر الكامل التام) [1] :

**النيلُ مَنْبَعُهُ لنا ومَصَبّه ما إنَّ له عن أرضِهَا تَحْوِيلُ**

فهو يؤكد على حقيقته لمصر؛ لأنه ليس كما زعموا أنه مجرى يمكن تحويله، أو من الممكن أنْ تُهَدَّدَ مصرُ من خلاله؛ لأن المصريين لا يبغون عنه بديلا .

ثم يشير الشاعر إلى مكر هؤلاء المعتدين بأنهم ادَّعَوْا أنهم دخلوا إلى مصر من أجل رفعة شأنها، وإصلاح ما فَسَدَ فيها، فبَيَّن أنَّ ادعاءاتهم الزائفة والباطلة إنما في ظاهرها الرحمة وظاهرها العذاب، وهذا ما ظهر جلياً واضحاً في إصرارهم على التنكيل بالمصريين، واللجوء معهم إلى أشد ألوان القمع والتعذيب، ففتحوا للإغارة عليهم كل باب، ولم يعلموا أنهم فعلوا كل تلك الأفاعيل بالمصريين؛

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١١٠ .

ليملأوا جوانب النيل وعيداً وعذابا، وهنا يعطينا الشاعر لمحة فنية رائعة إلى أن النيل هنا إنما هو رمز العزة والإباء والصمود لمصر وأهلها، فَعَبَّر بالوعد والوعيد تارةً، وهما لفظان متضادان، وبالرحمة والعذاب في بيت واحد تارةً أخرى؛ لكي يبين لنا ما سلكه الإنجليز في تعاملهم مع المصريين من اللين والخداع حيناً، والظلم والإجحاف أحياناً أخرى؛ بُغْيَة الوصول بالمكر والدهاء إلى مأربهم وأطماعهم، فيقول على وزن (بحر الخفيف التام) [١] :

**ومَلأتُمْ جَوَانِبَ النِّيلِ وَعْداً وَوَعِيداً، ورَحْمَةً ، وعذابا**

ثم يتوجه الشاعر في موطن آخر إلى الإنجليز، موضحاً مراوغتهم وخُبْثهم في ادعائهم الزائف أنهم جاءوا للإنصاف والعدل، ناعياً عليهم ما فعلوه بالأمة من طغيانٍ وظلمٍ وبغي، وكأنه يخاطبهم بلسان الحال والمقال بأنكم عَذّبْتُم المصريين، وفعلتم بهم الأفاعيل، وبالغتم في القهر والتنكيل! فهل استطعتم أن تُرْهِبُوا منا المخلصين، أو أن تَجِدُوا من المصريين خُنُوعاً لكم أو استسلاما ؟ فلا تحدثكم أنفسكم بأن مصر خَلَتْ بموت أحد زعمائها، فزعماءُ مصر كثيرون، يُلبون نداءها إذا دُعُوا إليها، لقد تركتم بسوء صنيعكم في مصر وشعبها عهداً ظالماً ووقتاً ذميماً وذكرى سيئة، وإذ به يبعث برسالة غضبٍ شديدٍ إلى هذا الطغيان الجاثم، يُحَذِّرُهم تحذيراً واضحاً بأن غضبة المصريين عاصفة، ستعصف بالأخضر واليابس، وستقتلع الجناة الغاصبين من أرضهم، كما تقتلع العواصف النباتات والأشجار، وبأن المصير الذي ينتظرهم إنما هو مصيرٌ أليمٌ وَخِيمُ العواقب، فيقول على وزن (بحر الخفيف التام) [٢] :

**فَعَدَلْتُمْ هُنَيْهَةً وبَغَـيْتُمْ وتَرَكْتُمْ في النِّيلِ عهداً ذميما**

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٢٣ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص:. ١٠٩ .

فشَهِدْنا ظُلْماً يُقالُ له العَدْ  لُ وَوُدّاً يسْقِي الحَمِيمَ الحَمِيما [1]

فاتَّقُوا غَضْبَةَ العَوَاصِفِ إنِّي  قدْ رَأَيْتُ المَصِيرَ أمْسَى وخيما

**ثالثاً: انتقاد مآخذ المجتمع المصري :**

إن الشاعر/ حافظ إبراهيم لم يستقر له قرار من أجل رفعة شأن بلاده، فأثار حفيظته ما رآه من المآخذ والعيوب التي أمْسَتْ تنخر في عظام هذا الشعب المصري، فرأى أنه من العار على من وُلِدَ في أحضان النيل، وارتوى بمائه، وعاش في ربوعه أن يأتي متخلفاً في ذيل الركب، مَهْمَا تقلَّبَ به دهره، لذلك فإنه يتساءل: أين عزائمُ المصريين وهِمَمُهُم التي لا تلين في مواجهة الأفاعيل المشينة للمحتل الغاصب المُشَتِّت لفُرْقةِ الأمة المصرية؟ إنه يرى أن هذه العزيمة والإرادة والأنفة لدى الشعب المصري، ما تكاد تجتمع حتى تتفرق، ولذا فإنه يدعو أبناء الوطن المصري إلى الألفة والتماسك ونبذ الفرقة، في محاولةٍ جادةٍ منه لتحريك الهِمَم، وإيقاظ الوعي، وعدم استسلامهم للسكون والخمول والضعف، مستلهماً من فيض النيل وتدَفُّقِه لعظيم نواله وخَيْرِه الشكل الحقيقي لمصر في فيضها وخيرها وعطائها، فيقول على وزن (بحر الكامل التام) [2] :

عارٌ على ابنِ النِّيلِ سَبّاقِ الوَرَى  مَهْمــا تَقَلَّبَ دَهْرُهُ أنْ يُسْبَقا

أوَ كُلَّمَا قالوا تَجَمّعَ شَمْلُــهُمْ  لَعِـبَ الشِّقَاقُ بِجَمْعِنا فَتَفَرّقا [3]

فَتَدَفَّقُوا حُجَجاً وحُوطُوا نِيلَكُمْ  فَلَكَـمْ أفَاضَ علَيْكُمْ وتَدَفَّقا [4]

لقد انطبع النيل في العقل الباطني لدى حافظ، مما كان له أثره النفسي على

(١) المراد بالحميم الأول: الصديق، وبالحميم الثاني: الشراب الشديد الحرارة .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٦٠-٦١ .

(٣) الشقاق: الخلاف والعداوة .

(٤) حاطه: أي صانه وحفظه .

حِسِّهِ ووجدانه ومشاعره، فرأى أن الشعب المصري قد اشتاق للحرية والاستقرار، ليس هذا وفقط: بل إنه اشتاق للعلم والعمل، للألفة ونبذ الفرقة وعدم التخاذل، ولذلك لم تفتر عزيمته، ولم تضعف قواه أو تَقِلّ دعوته، بل نراه يقف ناعياً على الأمة سكوتها وسكونها ونومها، وهي تبكي على مآثرها ومفاخرها وأمجادها وحضارتها، غير مُلتفتة إلى حاضرها ومستقبلها، وهذا كله في الوقت الذي يعتز فيه الاحتلال البغيض وأعداء الشرق بِذُلِّهم في أهل هذا الوطن وقت استكانتهم ونومهم، ومن ثم فهو ينظم شعره مُشَدِّداً على أصحاب الفكر والرأي وأرباب العِلم وأصحاب القلم قائلاً على وزن (بحر الطويل)[١] :

لدَى كُلِّ شَعْبٍ فِي الحَوَادِثِ عُدَّةٌ وعُدَّتُنا نَدْبُ التُّراثِ المُضَيَّعِ [٢]

فيَا ضَيْعَةَ الأقْلامِ إنْ لَمْ نَقُمْ بــهَا دِعَامَةَ رُكْنِ المَشْرِقِ المُتَزَعْزِعِ [٣]

أتَمْشِي بِهِ شُمَّ الأنُوفِ عــُدَاتُهُ ورَبَّ الحِمَى يَمْشِي بِأنْفٍ مُجَدَّعِ [٤]

وفي قصيدته التي نظمها وهو يُحْيِي ذكرى العام الهجري الجديد عام ١٣٢٧هـ – ١٩٠٩م، نراه ينتقد الحالة العامة للمصريين، فيندب واقعهم المرير، مخاطباً فيهم روحهم الزكيَّة الأبِيَّة في هيئة النيل الذي جعل منه رمزاً شامخاً للأمة المصرية، فيَصِفُ حينئذٍ شبابَها بأنهم رجال المستقبل المشرق والغد المأمول، طالباً إليهم أن يرفعوا عن أعينهم كمائم الغفلة، فقد مضى زمن التخاذل، وانقضى عهد النوم، وذهب وقت التواني إلى غير رجعة؛ لأن الحال قد تَغَيَّر، ولمْ يَعُدْ للمصريين عذرٌ في تقاعسهم وتخلفهم عن نَيْلِ مأربهم وتحقيق مطلبهم، فيقول على وزن

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١٣٠ .

(٢) ندب التراث المضيع : أي البكاء على ما خلفه العرب الاقدمون من مآثر ومفاخر .

(٣) الدِّعَامة: عماد البيت، والمتزعزع : المضطرب .

(٤) شُمُّ الأنوف: وصف يقال للسادة الاعزاء : والمُجَدَّع : المقطوع الأنف، ويقال ذلك للذليل .

(بحر الطويل) [١] :

مَضَى زَمَنُ التَّنْوِيمِ يا نِيلُ وانْقَضَى ... فَفِي مِصْرَ أَيْقَاظٌ علَى مِصْرَ تَسْهَرُ

وقد كان مُرْفِينُ الدَّهَاء مُخَدَّرا ... فأَصْبَحَ فِي أَعْصَابِنا يَتَخَدَّرُ [٢]

شَعَرْنَا بِحَاجَاتِ الحَيَاةِ فإنْ وَنَتْ ... عَزائِمُنَا عن نَيْلِهَا كيف نُعْذَرُ ؟

شَعَرْنَا وأَحْسَسْنَا وباتَتْ نُفُوسُنا ... من العَيْشِ إلَّا فِي ذَرَا العِزِّ تَسْخَرُ [٣]

إذا اللهُ أَحْيَا أُمَّةً لَنْ يَرُدَّهَا ... إلى المَوْتِ قَهَّارٌ ولا مُتَجَبِّرُ

رِجَالَ الغَدِ المَأْمُولِ إنَّا بِحَاجَةٍ ... إلى قادةٍ تَبْنِي وشَعْبٍ يُعَمِّرُ

رِجَالَ الغَدِ المَأْمُولِ إنَّا بِحَاجَةٍ ... إلى عَالِمٍ يَدْعُو وداعٍ يُذَكِّرُ

ويَسِير حافظ إبراهيم في هذا الإطار مُبْرِزاً لبعض المآخذ والعيوب التي استشرت في عصره بين المصريين، فيَذْكُر فيهم الخمولَ الذي أصابهم، وموتَ الطموح فيهم، وعدمَ المخاطرةِ في الذَّوْدِ عن أرضهم، والبحثَ عن وسائلَ جديدةٍ لِكَسْبِ أرزاقهم، هذا كله في الوقت الذي جالَ فيه إخوانُهم في الشام يبحثون عن كَسْبِ الرزق والعمل، وطَوَوْا بقاعَ الأرض مشرقاً ومغرباً يطلبون العيش الكريم، في ظل هذا المُعْتَرَك الطاحن لصراعات الحياة مع الغلاء وتفاقم الأسعار، فيقول بادئاً حديثه في نظمه بالشكوى من سوء الحال إلى القائمين وأولي الأمر في قصيدته (غلاء الأسعار) على وزن (بحر الخفيف التام) [٤] :

أَيُّهَا المُصْلِحُونَ ضَاقَ بِنَا العَيْـ ... ـشُ ولَمْ تُحْسِنُوا عليه القِيَامَا

ثم يَحُثُّ الشاعر المصريين أن يُخْرِجوا أنفسَهم مِن آفةِ نومِهِم وسكونهم

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص:. ٤١ .

(٢) المُرفين: مخدر معروف، والمراد به هنا خداع السياسة .

(٣) ذَرَا العِز: بفتح الذال كتفه وظله .

(٤) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٣١٦ .

وفقرهم في أوطانهم، ويضرب لهم المثل بإخوانهم في أهل الشام، فقد امتطوا الخطوب، وركبوا البحار، وسابقوا الغمام، وعزموا على المغامرة والرحيل، فيقول ناظماً لشعره على وزن (بحر الخفيف التام) [١] :

وِرِجَالُ الشّآمِ فِي كُرَةِ الأرْ ضِ يُبَارُون فِي المَسيرِ الغَمـَامَا

رَكِبُوا البَحْرَ جَاوَزُوا القُطْبَ فَاتُوا مَوْقِعَ النّيْرَيْنِ خَاضُوا الظَّلامَا

أمَّا أهل مصر، فقد ضاق الشاعر بهم ذرعاً بسبب سوء فعالهم، وما هم فيه من الضعف والهوان والانكسار، ومع ذلك فهم مصابون بداء العظمة والتعالي والتَّكَبُّر على أهلهم، وكأنه يقول بلسان الحال والمقال: ما للأقارب على بعضهم بخلاء وعلى الغير كُرَماء، ما للأقارب مع بعضهم أقوياء ومع الأجانب أذِلاء، ما للأقارب لَعِبَ بِهِم الشيطان وغضب عليهم الرحمن، إنهم اتبعوا أهواءهم وخالفوا القرآن والسنة والمبادئ والأخلاق الإسلامية السمحة السامية، فيقول على وزن (بحر الرَّمَل التام) [٢] :

أمّةً قَدْ فَتَّ فِي سَـــاعِدها بُغْضُها الأهْل وحُبّ الغُرَبَا [٣]

تَعْشَقُ الألقابَ فِي غَيْرِ العُلا وَتُفـّدي بالنّفُوسِ الرّتَبَا

وَهْيَ والأحْدَاثُ تَسْتَهْدِفُها تَعْشَقُ اللَّهْوَ وتَهْوَى الطَّرَبَا

لكن حافظ إبراهيم يُرْجِع ما آل إليه حال المصريين من الفقر والذِّلّة إلى الحرمان، ثم يطوف بهم على شاطئ البؤس والهوان والاستكانة، مخاطباً إياهم بمفهوم المخالفة، فيُرْجِع ذلك إلى ما في طباعهم من كرم الأخلاق، ولين الطباع،

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٣١٦، ٣١٧ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٧ .

(٣) فَتَّ في ساعدها: عبارة يُكني بها عن الإضعاف وإيهان القوى .

وهي" نظرة ناقدة في تحليل الطبيعة المصرية"[١]، فضلاً عن الطبيعة الساحرة لِجَوِّ مصر، وطِيبِ هوائها، واعتدال مناخها، مما كان سبباً في دخول هؤلاء الغرباء والدخلاء الذين استنزفوا أموالهم وخيراتهم، وأطمع فيهم المستعمرين والأعداء، فقال على وزن (بحر الخفيف التام) [٢] :

إنَّ لِينَ الطِّبَاعِ أَوْرَثَنَا الـذُّلّ ـلَّ وأغْرَى بِنَا الجُنَاةَ الطَّغَامَا [٣]

إنَّ طِيبَ المَنـاخِ جَرّ علَيْنَا فِي سَبِيلِ الحَيَاةِ ذاكَ الزِّحَامَا

وهكذا رسم الشاعر لنا صورة موحية لعصره متمثلة في نهر النيل، ومكانة مصر الشامخة بحضارتها وأمجادها، أراد من خلالها أن تَتَبَوَّأ مصر مكانتها بين الأمم، وأن تكون حياتها الاجتماعية خيراً مما هي عليه، فلا تواكل في أبنائها ولا انقسام، ولا خنوع ولا استسلام، ومن ثم كان صريحاً في خطابه لمواطنيه، شجاعاً في نُصْحِهِ لهم لِنُصْرَةِ بلاده؛ لكي تنهض الأمة من كبوتها، وتفيق من غفلتها، وبذلك ترتفع رايتُها، ويسطع نَجْمُها .

(١) خصائص الشعر الحديث، د/ نعمات أحمد فؤاد، ص: ١٤١ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٣١٧ .

(٣) الطَّغَام بالفتح: أوغاد الناس وأراذلهم .

## المبحث الثاني

## المواطن النفسية الخاصة

إن عزيمة المصريين وحُبَّهم لبلدهم وإرادتهم لرفعة شأنهم وشأن بلادهم، جعلت حافظ إبراهيم متشوقاً دوماً إلى رؤية نور الحب والتسامح بين أبناء وطنه، الذين فرَّقَهم وشَتَّتَ شملهم هذا الاحتلال الغاشم، فكانت رؤيته الخاصة للخلاص من ذلك، تتمثل في رِباطة جأشهم، وتوحيد كلمتهم في الدفاع عن أرضهم، واصطفافهم بجانب بعضهم في أفراحهم وأتراحهم، كل هذه العوامل وغيرها كانت سبباً في أن تجعل شخصية المصريين لا تقهر؛ حيث إنها قاومت عوامل الفساد والقهر في حربها، التي لم تكن متكافئة بحالٍ من الأحوال بينها وبين عدوها، فاستعانت على تفوق العدو في السلاح بإيمان أصحاب الحق في استرجاع حقهم، واستعاضت عن وفرة عدده وعتاده ببسالتهم وشجاعة روحهم، ووَضْعِهِم نُصْب أعينهم هذه الحضارة الماجدة لبلدهم، من تاريخٍ حافلٍ وطبيعةٍ غنيةٍ مترفة .

لقد كانت هناك عدة مواطن تمثلت في بناء شخصيتهم الفريدة التي تربَّتْ على ضفاف نهر النيل، وارتوت بمائه، وسكنت قلوبَهم في ظلاله روحُ الألفة والمودة والتسامح، ومن هذه المواطن التي كانت سبباً أصيلاً في بناء شخصية حافظ إبراهيم ما يلي :

**أولاً: نشأته :**

إن البيئة التي نشأ فيها حافظ إبراهيم في أحضان نِيل مصر، كانت من أهم المواطن التي كانت سبباً في بناء شخصيته، فقد عانَى من التجاهل والظلم في تلك البيئة معاناة شديدة؛ بسبب يُتْمِهِ ورِقَّةِ حالِه، مثلما تعاني منه الطبقات المتوسطة التي كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسار، فأحَسَّ بما تُعَانِيه هذه

الطبقات الشعبية الكادحة من جهدٍ وضيقٍ ورِقَّةِ حال[١]، مُسْتَمِدّاً من تلك النشأة المصرية أعظم أثرٍ فيها، وهو نِيلها الذي يجري في ربوعها؛ لكي يعالج من خلال شكواه إليه حالتَه النفسيةَ السيئةَ وحالةَ بلادِه، وكأنه يخاطبه مخاطبة الصديق الوفي، فيُحَمِّل عليه أعباءَ بلاده وأحداثها، ويتخذه كركيزة أساسية من ركائز مصر، ودعامة قوية من دعائمها، يشكو إليه حيناً، ويستنجد به حيناً آخر، ويشاركه أيضاً في الأحداث تارة، ويتجاوب معه تارة أخرى[٢]، فرَسَمَ صورة واقعية لهذا الشعب الذي نشأ أحضانه، مُبْرِزاً لحالته النفسية السيئة وألمه وصبره على مصابه في احتلال بلده وضيق عيشه، ومُوَضِّحاً أيضاً على الجانب الآخر طيبة قلبه ووُدهِ وصفاء ونقاء روحه، فكان الترجمانَ الصادقَ والأمينَ لهذه الطبقات الكادحة[٣]، ولذلك عَبَّرَ أصدق تعبيرٍ عن بؤسه هو وأقرانه في بلده، فهو الذي ذاق مرارة اليتم وهو ابن عامين، وعاش في حياته مضطرباً بائساً محروما، ويزداد في هذا الوقت اختلاطُه بالشعب، وتَطَلُّعُه لأحواله، ومعرفتُه بطبقة البائسين وما يلاقونه من صِعابٍ ومَشَاق، ثم يختلط بعد ذلك بالطبقة الممتازة من المصريين التي لم تكسب امتيازها عن الوراثة، وإنما كسبته بجهودها، وقد نشأت هذه الطبقة في البيئة الشعبية، وتهيأ لها أن تسمو بحياتها، وأن تصبح من الطبقة الأرستقراطية، فتشعر حينئذٍ بما يشعر به كلُّ أبناء الشعب من حزن وألم، وتتمنى لو أنها استطاعت أن تغير حياته في السياسة والاجتماع والثقافة، وكان مِمَّا زاده إحساساً بقضايا وطنه اتصالُه بالقادة الوطنيين الذين كانوا يَحْمِلون آمالاً كبيرةً لبني وطنهم، ورغبتهم الأكيدة في النهوض بالوطن والمواطنين[٤]، فينظم أبياتاً

(١) ينظر: حافظ وشوقي، ص: ١٩٥، بتصرف .

(٢) ينظر: النيل في الأدب المصري، ص٣١٢ ، ٣١٣، بتصرف .

(٣) ينظر: حافظ ابراهيم شاعر النيل، ص: ٩٩، والأدب العربي في مصر، ص: ١٠٢، بتصرف .

(٤) **ينظر: الأدب العربي المعاصر في مصر، د/ شوقي ضيف، ص١٠٥، ط: ١٠، دار المعارف ١٩٦١م .**

رائعةً يُصَوِّر فيها هذه الحالة على وزن (بحر الخفيف التام) [١] :

ذُقْتُ طَعْمَ الأسَى وكابَدْتُ عَيْشاً دون شُرْبِي قَدَاهُ شُـــرْبُ الحِمَامِ

فَتَقَلَّبْتُ فِي الشَّقَاء زَمَــاناً وتَنَقَّلْتُ فِي الخُطُــوبِ الجِسَامِ

ومَشَى الهَمَّ ثَاقِباً فِي فـُؤَادِي ومَشَــى الحُزْنُ نَاحِراً فِي عِظَامِي

ومـن هنـا انتشـر شـعره بـين النـاس، وأحَبَّـه الكثيـرون، فـاعتَزَّ بمصـريته ووطنيته، وأصبح شاعر الوطن والمجتمع، وتغنى بمصر ونيلها في قصائده، فنراه يخاطب الملك (فؤاد الأول)، مُضِيفاً نهر النيل إلى مُلْكِه في مصر والسودان، فيقول على وزن (بحر الكامل التام) [٢]:

لكَ مِصْرُ والسَّودانُ والنَّهْرُ الذي يَخْتَالُ بَيْنَ رُبَىً وبَيْنَ بِطَاحِ

ثم يُقْرِن اسم النيل بمصر في مخاطبته للملك ( فؤاد الأول) اقتراناً فيه معنى التداخل والتعاطف والتمازج، فيقول على وزن (بحر الكامل التام) [٣] :

أوَ لَمْ يَكُنْ لكَ مُلْكُ مِصْرَ ونِيلُها يَنْسَابُ بَيْنَ مُرُوجِهَا الأفياحِ

وهاهو كذلك يُحَدِّثنا بِلُغة المُتَغَنِّي بمجد مصر وعظمتها وآثارها الخالدة التي من أبرزها نهر النيل، فيقول على وزن (بحر الخيف التام) [٤] :

أيَّ شَيْءٍ فِي الغَرْبِ قَدْ بَهَرَ النَّـا سَ جَمَالاً ولَمْ يَكُنْ مِنْهُ عِنْدِي ؟

فَتُرَابِي تِبْرٌ ونَهْرِي فُرَاتٌ وسَمَـائِي مَصْقُولةٌ كالفِرِنْدِ

**ثانياً: ارتحاله واغترابه :**

كان لرحيل حافظ إبراهيم عن بلده، وغربتِه التي عاشها في السودان، وبُعْدِه

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٢٨٨ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٠٠ .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٠١.

(٤) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٨٩ .

عن أهله وأصدقائه، وتضييقِ الخناق عليه بأن يعيش في أرضٍ نائية، يشتكي حَرَّها وعذابَها مثل ما يشتكي من عَنَت رؤسائه وعدم تقديرهم لمواهبه، فضلاً عن ما يراه من غدر الاحتلال الإنجليزي وتدبيره في تحقيق أغراضه الاستعمارية، كل ذلك وغيره كان سبيلاً إلى ازدياد سخطه وأساه، وبخاصة إذا عرفنا أن الحكومة المصرية آنذاك، كانت تَعُدُّ السودان منفَى للمغضوب عليهم من الجند والضباط [١] .

فقد أكثر حافظ إبراهيم من الشكوى إلى أصدقائه بعدما أصابه داءُ الملل، " ولمْ يستطع أن يتحمل جَوَّ السودان، ولا جفاء العيش فيها، مما كان سبباً في سخطِهِ وعدم رضاه عن عمله بالسودان، فتحَسَّر على أحبابه في مصر، وعلى لياليها وجوِّها البديع، وعيشها الناعم، كما يدل على ذلك شعره" [٢]، يقول مشفقاً على نفسه وناعياً إياها على وزن (بحر الوافر التام) [٣] :

**رَمَيْتُ بِهَا على هذا التَّبَابِ ... وما أوْرَدْتُها غَيْرَ السَّرَابِ (٤)**

**ومَا حَمّلْتُها إلا شَقَــاءً ... تُقَاضِينِي بِهِ يَوْمَ الحِسَابِ**

**جَنَيْتُ عليْكِ يا نَفْسِي وقَبْلِي ... عَلَيْكِ جَنَى أبِي فَدَعِي عِتَابِي**

فهذه كانت حالته التي كان عليها في السودان الذي كان يراه منفى له، ومن ثم فإن تلك البيئة القاسية التي عاش فيها حافظ في السودان، جعلته يُقَدِّر تراب مصر، ويَعْرف للنيل حَقَّه وفضله، ولكن بعد هذا العناء والضجر الذي يعانيه حافظ، ما الذي يتمناه، ويطمح إليه عاجلاً غير آجل؟ .

---

(١) ينظر: مجلة ابولو المجلد الأول ص: ١٣٩٦، ١٤١٧، عدد: يوليو ١٩٣٣م .

(٢) ينظر: مقدمة ديوان حافظ، ص: ١٢، بتصرف .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٢١ .

(٤) بها: أي النفس، والتباب/ الخسران والنقص .

لقد عَبَّر عن أمنيته الآن في أن يبلغ مصر، ويَشُمّ من ترابها روائحه الزكية العطرة قائلاً على وزن (بحر الوافر التام) [١] :

**متَى أنا بَالِغٌ يا مِصْرُ أرْضاً أشُمَّ بِتُرْبِها رِيحَ المَلابِ** [٢]

ولا شك في أنَّ مَنْ يَبتعد عن تراب مصر وأهلها ونِيلها، يَجِدُ في نفسه شوقاً لِنِيلها ولأهلها، وحنيناً لأرضها وترابها، ويبدو أن الإحساس المليء بالضَّجَر والتَّوَجُّع الذي شَعُرَ به حافظ في أثناء إقامته بأرض السودان، قد تَحَوَّل إلى حنينٍ واشتياقٍ لعهده السابق بأرض مصر، يقول معبراً عن ذلك على وزن (بحر الوافر التام) [٣] :

**سَلامُ الله يا عَهْدَ التَّصَابِي عَلَيْكَ وفِتْيَةِ العَهْدِ القَدِيمِ**

**أحِنُّ لَهُمْ ودُونَهُمْ فَــلاةٌ كَأنَّ فَسِيحَهـا صَدْرُ الحَلِيمِ**

**ثالثاً: التَّعَلُّق العاطفي بأمته ووطنه :**

لقد استطاع حافظ إبراهيم بسبب ألَمِه النفسي الذي أصابه جرَّاء ما حدث له ولوطنه، أن يُذِيبَ لوعة البُعْد والتَّحَسُّر في عاطفته الوطنية المنبثقة من إحساسه بآلام وطنه وأهله، وهذا ما جعل شِعْرَه يكتسي بهالةٍ من العظمة والمجد والفخر ورفعة الشأن، فقد " كان بلا مِرَاء خيرَ ترجمان للشعب في أحاسيسه وآماله، وخيرَ مُوَاسٍ له في مآسيه وآلامه، وقد تجَلَّتْ الروحُ الوطنية، وتألَّقَ نُورُها في شعره كلما وجَدَتْ الحركةُ الوطنيةُ في قصائده قوةً يَسْتَمد منها الحماسة والصمود في الجهاد والثورة على الاحتلال" [٤] .

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٢٢ .

(٢) الملاب: لفظ فارسي وهو كل عطر سائل .

(٣) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١٦٤ .

(٤) ينظر: شعراء الوطنيه في مصر، أ/ عبدالرحمن الرافعي، ص: ٩٧، ط: الثالثة، دار المعارف ١٩٤٥م .

فكان شعره حافلاً بمعارك الكفاح التي جال في كل ميادنيها، وأبلى فيها أحسن البلاء، كما أن شِعْرَه ملئٌ بالعاطفة الجياشة، فكان مَعِيناً لا ينضب من النضال الوطني، وهذا كله نابعٌ مِن حُبِّه لوطنه الذي يَمْلِك عليه شغاف قلبه، ويلهمه الذَّوْدَ عن حريته واستقلاله، وقد عبَّر عن عاطفته الملتهبة في أكثر من موطن، فهو يتحَسَّر على ماء نِيلِه العذب الذي يُسَيْطِر عليه الأفاقون المخادعون، ويستفيد منه الفاسدون الذين لا يراعون الله في وطنهم وبلادهم، فحين يَذْكُرُها في منفاه كأنه القَرْم أي السَّيِّد المُعَظَّم صاحب التجربة والرأي السديد الذي يموت كَمَداً، ويتمنى رجوعه إلى بلده لكن تأبَى عليه نفسُه أنْ يراها في هذه الحالة، فيقول على وزن (بحر البسيط التام)[1] :

**متَى أرَى النِّيلَ لا تَحْلُو مَوَارِدُهُ لِغَيْرِ مُرْتَهِبٍ لله مُرْتَقِبِ**

**فَقَدْ غَدَتْ مِصْرُ في حالٍ إذا ذُكِرَتْ جادَتْ جُفُونِي لها باللُّؤْلُؤِ الرَّطِبِ**

**كانَّنِي عِنْد ذِكْرَى ما ألَمَّ بِها قَرْمٌ تَرَدَّدَ بين الموتِ والهَرَبِ**

لقد كان للروح الوطنية أثر بعيد المدى في قلب حافظ إبراهيم، فتغَنَّى بعظمة مصر وحضارتها، وأخذ يَحُثُّ أهلها على إحياء مجدها، وقد ضرب لنا الشاعر أروع الأمثلة في ذلك حين رأى هزيمة الثورة العرابية ، وعاين قضاء الاحتلال على كل الأحرار الوطنين، وشاهد ظلم الضباط الإنجليز وسيطرتهم الكاملة على الجيش المصري، كل هذه الاحداث وغيرها جعلته يعتز بمصريته، ويؤمن بوطنيته، بل لقد اتسعت دائرة وطنيته لتشمل الأمة العربية، فهو المدافع عن عروبته ووطنيته قائلاً على وزن (بحر البسيط التام) [2] :

**لِمِصْرَ أمْ لِرُبُوعِ الشَّامِ تَنْتَسِبُ هُنَا العُلا وهُناك المَجْدُ والحَسَبُ**

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١١٨ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٢٦٨ .

إذا أَلَمّتْ بِوَادِي النِّيلِ نَازِلَــةٌ بَاتَتْ لهَا راسِيَاتُ الشَّامِ تَضْطَرِبُ
وإنْ دَعَا فِي ثَرَى الأهرَامِ ذُو أَلَـمٍ أَجَابَهُ فِي ذُرَا لبنانَ مُنْتَحِــبُ
لوْ أَخْلَصَ النِّيلُ والأُرْدُنُ وُدَّهُمَا تَصَافَحَتْ مِنْهُمَا الأَمْوَاهُ والعُشُبُ [١].

وهكذا كان حافظ مُحِبّاً لوطنه، متعلقاً به، شديدَ الإخلاص له، عاش له، وتألم من أجله، فكان نور الوطنية ساطعاً في شعره، فاستلهم روحها، وجاد بأبدع معانيه الشعرية فيها، فظهرت عاطفته الوطنية عميقة متأججة، وبَدَا إحساسُه بالرحمة عظيم، وشعوره الرقيق المُرْهَف واسع .

**رابعاً: افتقاره ونكباته :**

لقد أثَّرَتْ شِدَّةُ الحاجةِ وكثرةُ الهموم في حياة حافظ تأثيراً بالغاً لا يكاد يفارقه، فتوالت عليه سلسلةٌ من النكبات والإخفاقات التي كان لها تأثيرها الشديد في نفسه، بدأت هذه النكبات بفقدان أبيه وهو في ريعان طفولته وصباه، إلى حياة التَّقْتِير وضيق ذات اليد، ثم إلى بُؤْسٍ في بيت خاله، ثم إلى عدم توفيقٍ في مجال المحاماة، إلى غير ذلك مما جعله ساخطاً على حياته، ناقماً على حظه ودهره، وعلى الناس من حوله، فصَوَّرَ في شِعره آلامَ وآمالَ أمته، وكأنما يُصَور أحاسيسَ نفسِه ومشاعره، فهو الذي تَرَبَّى يتمياً عندما تولى (سعد زغلول) نظارة المعارف، وتوَسَّمَ فيه خيراً كثيراً له ولأبناء بلده، فبعث إليه بتشبيهٍ في غاية الروعة والجمال مع الفارق بين الحالين، وتوجه إليه يخاطبه؛ كي يُعِيد إليهم زُخرفَ الحياة، كما أُعِيدَتْ ورُدَّت الحياة للموتى بقدرة الله على يَدِ سيدِنا عيسى عليه السلام، وكأنه المسيح (عيسى عليه السلام) الذي أحيا الموتى بإذن الله، وأبرأ الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، فقال على وزن (بحر الكامل المجزوء) [٢] :

(١) الأردن: نهر بفلسطين معروف، والأمواه: جمع ماء .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٢٦٤ .

يا سَـعْدُ أنتَ مَسيحُها فاجْعَلْ لِهذا المَوْتِ حَدَّا
يا سَعْدُ إنَّ بِمِصْرَ أيْتَاماً تـُؤَمِّـلُ فِيك سَعْدا
قد قامَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ العِلْـ ـمِ ضِيــقُ الحَالِ سَدَّا

ثم يدعو الشاعر إلى رعاية الطفولة، نظراً لما عاناه في طفولته من متاعب ومصاعب حياتية قاسية، وكأنه كان يرى نفسَه في كل طفلٍ مُشَرَّد، منذ أن فقَدَ أباه وهو في الرابعة من عمره، فيقول على وزن (بحر الخفيف التام)[1] :

أنْقِذُوا الطِّفْلَ إنَّ فِي شَقْوَةِ الطِّفْـ ـلِ شَقَاءً لنَا علَى كُلِّ حَالِ
إنْ يَعِشْ بَائِساً ولَمْ يَطْوِهِ البُؤْ سُ يَعِشْ نَكْبَةً علَى الأجْيَالِ
رُبَّ بُؤْسٍ يُخَبِّثُ النَّفْسَ حَتَّى يَطْرَحُ المَرْءَ فِي مَهَاوِي الضَّلالِ
أنْقِذُوا فَرُبَّمَا كانَ فِيــهِ مُصْلِحٌ أوْ مُغَامِرٌ لا يُبَــالِي

وإذ بـه يَذكر أيام حداثته وطفولته البائسة، التي لمْ يَرَ فيها الخير قط، فما يكاد ينتهي أو يخرج من نكبةٍ حتى يقع في أخرى، فلَمْ يتذكر موقفاً طيباً أو عيشة هنيئة ناعمة مُترَفةَ، في حال حياته من صباه حتى كبُرَ سِنُّه، وشدَّ ساعِدُهُ، وقَوِيَتْ عظامه في أيام شبابه، حتى مَضَتْ عليه فترة طويلة بلا عمل، وكَمْ هو إحساس قاسٍ على النفس أن يشعر الإنسانُ بأنَّه عالةً على غيره، يستعطفهم لكي يقفوا بجانبه، وهم يُحاولون مساعدته وتقديمَ يَدِ العون له، إما حياءً وخَجَلاً، وإما شفقةً وعطفاً، فيَعْرِض لنا ذلك مُصَوِّراً هذه الحالة البائسة، فيقول على وزن (بحر الكامل المجزوء) [2] :

قَضَّيْتُ عَهْدَ حَدَاثَـتِي ما بَيْنَ ذُلٍ واغْتِرابْ

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٣١١ .

(٢) أنشد حافظ هذه القصيدة بين يدي السلطان (حسين كامل) في ليلة أحْيَتْهَا الجمعية الخيرية الإسلامية، وقد نُشِرَت سنة ١٩١٦م، ديوان حافظ ابراهيم، ج: الأول، ص: ٣٠٢ .

لَمْ يُغْنِ عَنِّي بَيْن مَشْــ ـرِقِها ومَغْرِبِها اضْطِرابْ
صَفِرَتْ يَدِي فَحَــوَى لهَا رأسِي وجَوْفِي والوِطَابْ (١)
وأنا ابْنُ عَشْرٍ لَيْسَ فِي طَوْقِي مُكَافَحَةُ الصِّعَابْ
لَمْ يَبْقَ مِنْ أهْلِي سِوَى ذِكْرِ تَناسَــاهُ الصِّحَـابْ
أمْشِي يُرَنِّحُنِي الأسَـى والبُؤْسُ تَرْنِيـحَ الشَّرَابْ (٢)

فمع أن شاعرنا قد انتابته شدائدُ كثيرةٌ في حياته، ولكن أبَت الدنيا إلا أن تجد لشقائه سبيلاً لسعادته، فمنحته القدرة الفائقة على المرح والفكاهة، فضحك من البؤس ومن الشقاء، وكان له ذوقٌ بارعٌ في اختراعِ النُّكْتَةِ عن كل ما يدور حوله، فما يسمع حديثاً أو يُعرض أمامه شيء حتى يدرك موضع الفكاهة منه، ومن العجب مع هذا أننا لا نرى للنوادر والنكات في شعره مجالاً، فمن قرأ شعره ولم يعرف شيئاً من صفاته، لا يشعر بأنه كان فكهاً مزاحا [٣] .

(١) صفرت يدي ، فرغت ، وخوى " خلا ، ويريد بالوطاب ، وعاء الزاد ، والأصل فيه سقاء اللبن
(٢) يُرَنِّحُنِي: يُمَلملني يمنة ويسرة، والأسى : الحزن .
(٣) ينظر: مقدمة ديوان حافظ، ص: ١٦، ١٧ .

## الفصل الثاني

## نهر النيل بين الرمزية والواقعية في شعر حافظ إبراهيم

حظي نهر النيل من بين مظاهر الطبيعة بامتيازات عديدة، حيث قام الشعراء ومنهم حافظ إبراهيم بعملٍ دؤوب، وسَعْيٍ جاد، جعلهم يتحدون هذه المظاهر، ويُقاومون أهوالها، فالأمطار في بلادهم مهما كانت غزيرة، فإنها لا تعوق السائرين عن مقاصدهم، والرياح كذلك مهما عصفت لا تمنعهم عن غاياتهم؛ لأنهم أعَدُّوا لكل شيء عدته، فجعلوا الصخور في رؤوس الجبال خضرة يانعة بما غرسوا فيها من ألوان الكلأ والنباتات، وقد جعلوا من أرض مصر الجدباء آنذاك أرضاً خصبة بسبب النيل الذي يبعث لها الحياة والخصب والنماء .

هذا النيل على الرغم من عدم اختلاف أحواله عن غيره اختلافاً جوهرياً، فإنه كان ولا يزال عَصَبَ الحياة، فهو بالنسبة إلى المصريين سبيل إما إلى الغِنَى أو الفقر، إما إلى القحط أو الخصب، وبسببه أيضاً إما أن يعيش الناس في شدة طاحنة أو بَسْطةٍ في الرزق، وفي هذا الإحساس يكاد يتساوى جاهلنا والمتعلم، فكلاهما ينفعل بما يحيق به وبمؤامرات المستعمرين عليه [1] .

من هذا المنطلق نجد أنَّ لفظة النيل في شعر حافظ قد تكرَّرَتْ ما يقرب من (إحدى وتسعين مرة)، فتارة يراد بها (النهر) على سبيل الواقع والحقيقة، وتارة أخرى يراد بها الرمز لمصر، ومن ثم جاء الحديث هنا في هذا الفصل منقسماً إلى مبحثين مهمين، وهما:**(الرمزية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم، الواقعية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم)** .

(١) ينظر: النيل في الأدب المصري، د/ نعمات احمد فؤاد، ص: ٣١١، بتصرف .

## المبحث الأول

## الرمزية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم

قبل أن يتم الولوج في شعر الرمز الخاص بنهر النيل عند حافظ إبراهيم، فإننا نلقي الضوء على هناتٍ موجزة من الرمزية الأدبية بصفة عامة، ومن ذلك أن مفاهيم النقاد قد تنوعت حول ما يسمى بالرمزية، فهي مصدر صِيغ من الرمز للدلالة على مذهب أدبي أو فلسفي، وقد عَرَفتها كل الآداب العالمية، وشاعت في الأدب العربي على اختلاف عصوره، إلا أن الاختلاف قد دَبَّ بين النقاد حول ماهيتها، " واعتبر معظمهم أن كل أدب غامض هو أدب رمزي، وزعم البعض أن هذا النوع من التعبير داء تفَشَّى في الإنتاج الشعري الحديث، فعَطَّل الوضوح الذي اعتدناه خلال مطالعاتنا لآداب العالم عامة وللعربية منها خاصة "[١]، ومن هنا يتبين أن الرمزية في الشعر قديمة قِدَمَ الآداب سواء أكانت عربية أم غربية، وقد برزت الرمزية عند الشعراء الذين لا يريدون التعبير عما بداخلهم بأسلوب مباشر، وهذا ما يُوَضِّحه لنا السراج الطوسي في بيان معنى الرمز قائلاً: " الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله "[٢]، فهي طريقة أدبية توجد عند معظم الشعراء من خلال سَوْقِ كلامهم عن طريق الرمز والإيحاء؛ لأنه –أي الرمز– " يُعِيد الشِّعر إلى طبيعته الأولى؛ إذ إن الشعر في أصول أغراضه لا يُنَوِّه عن الأشياء الواقعية مباشرة، بل يُعَبِّر عنها بطريقة صوريةٍ إشارية "[٣]، ومن ثم فالرمزية تتمثل في شكلٍ معين من الشعر كما أشار إلى ذلك الدكتور/ بشر فارس حينما ذكر ذلك في مقالة له فقال: هي " لون من الشعر، يبتعد عن كل ما هو

(١) الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، ص: ٧، ط: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت– لبنان ١٩٤٩م .

(٢) اللُّمَع في التصوف، السراج الطوسي، ص: ٤١٤، ط: مكتبة القاهرة ١٩٦٠م .

(٣) الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، ص: ٨ .

واضح سطحي مألوف" [١] .

ومن هنا نجد أن الأدب العربي تأثر كما تأثرت الآداب العالمية الأخرى بهذه النزعة الرمزية، فتردد صدى هذا المذهب في شعر كثير من الشعراء المعاصرين، ومن هؤلاء: شاعر النيل (حافظ إبراهيم)، الذي رمز في شعره لمصر بالنيل، وكان لهذا الرمز دوافعه وأسسه؛ حيث اقترن النيل في شعره بالحديث عن الوطنية المصرية، وارتفع على أن يكو مجرد ظاهرة طبيعية كما كان من قبل، بل غدا مَعلماً من معالم الوطنية المصرية، وهذا أمرٌ طبيعيٌ في عصر يقظةٍ قومية، في عصر طغَى فيه الاستعمار على المصريين بحجز ماء النيل عنه، مما كان له أبعد الأثر على نفس المصريين بجميع فئاتهم وأطيافهم، في أن يكونوا حائط صَدٍّ للدفاع عن نِيلِهِم وأرضهم وعرضهم، ومن ذلك ما ذكره حافظ للفظ النيل وتردد في شعره مَرَّات عديدة كما سبقت الإشارة إلى ذلك قبل ذلك، هذا فضلاً عمَّا ذكره من ألفاظ أخرى يرمز بها إلى مصر، كلفظ النهر، أو لفظ الكنانة، أو لفظ الوادي، " كمن يؤكد لنفسه وجود شيء عزيز عليه، وهذا الإكثار من ذكره، جعله في أعيننا وأعين الناس رمزاً لمصر وعَلَماً عليها" [٢] .

فحينما يَعرض علينا الشاعر هيئة النيل الذي غضب غضباً شديداً من أفعال الاحتلال، والذي ضاق صدره من هول ما يرى ليل نهار، فهو يرمز حينئذٍ بالنيل ليعرض هيئة مصر الغاضبة، التي ساءها حادث التنكيل بالمصريين في حادثة (دنشواي) فيقول على وزن (بحر الكامل التام) [٣] :

**إنْ ضَاقَ صَدْرُ النِّيلِ عمّا هَالَهُ يَوْمَ الحَمَامِ فإنَّ صَدْرَكَ أرْحَبُ**

(١) مقالة (في المذهب الرمزي)، د/ بشر فارس، ص: ٧١٢، مجلة الرسالة، عدد: ٢٥١ سنة ١٩٣٨ م .

(٢) النيل في الأدب المصري، د/ نعمات أحمد فؤاد، ص: ٣١١ ، ٣١٣، بتصرف .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٣ .

وها هو الشاعر يُقَدِّم لنا الشكل العام لمصر التي تطمح إلى الاستقلال، والتي لا تألو جهداً في دعوتها إلى المخلصين من أبنائها أن يستَعِدُّوا بكل مقوماتهم، ويهُبُّوا لنجدتها، رامزاً لها بالنيل الذي ينادي المخلصين من أبنائه، داعياً إياهم لحمايتها بقوله على وزن (بحر الطويل) [١] :

وَعُدْتَ إليها حينَ نادَاكَ نيلُها أقلْ عَثْرَتِي فالْقَوْمُ فِي الظُّلْمِ أبْدَعُوا

ثم يعطي لنا الشاعر صورة رامزة لافتخار مصر بأبنائها وبناتها رجالاً ونساء، وتباهيها بأعمالهم الجليلة، فجعل النيل مفتخراً ومتباهياً بذلك، وهو يُهدي للمخلصين من أبنائه وبناته تحياته الطيبة الزكية، الذين طالما كان العمل الجاد ديدنهم من أجل وطنهم، فيعرض ذلك رامزاً بالنيل وموضحاً أن مصر هي المباهية والمفاخرة، فيقول على وزن (بحر الطويل) [٢] :

إليّكُنَّ يُهْدِي النِّيلُ ألْفَ تَحيّة مُعَطَّرَة فِي أسّطُرٍ عَطِرَاتِ

ويُثْنِي علَى أعْمَالِكُنَّ مُوَكِّلِي بإطْرَاءِ أهْلِ البِرِّ والحَسَناتِ

أقَمْتُنَّ بالأمْسِ الأساسَ مُبَارَكاً فَزِدْتُنَّ فِي الخَيْرَاتِ والبَرَكاتِ

ويُدَنْدِن الشاعر في هذا الإطار في أكثر من موضع شعري، فيرمز إلى مصر بالنيل، حين يشير إلى معرفة النيل الذي يقصد به مصر بأن الغَرْس الذي والاه وتَعَهَّدَه (مصطفى كامل) بالعناية والرعاية قد نما وأثمر وآتى أكله، فيقول على وزن (بحر البسيط التام) [٣] :

فَيَعْلَمَ النِّيلُ أنَّا خَيْرُ مَنْ وَرَدُوا وَيَسْتَطِيلَ اخْتِيَالاً ذلك الهَرَمُ

هَذا الغِرَاسُ الَّذِي وَالَيْتَ مِنْبَتَهُ بِخَيْرِما والَتِ الأضْوَاءُ والنَّسَمُ

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٦٩ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١٣١ .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٦٢ .

أَمْسَى وأَضْحَى وعَيْنُ اللهِ تَحْرُسُهُ حتَّى نَمَا وَحَلاهُ المَجْدُ والشَّمَمُ

ثم يرمز إلى مصر عن طريق مخاطبته إياها بواسطة النيل، وهي صاحبة البشرى بهذه الأخبار التي إن صدق توقعها هي أخبار سارة عزيزة على كل مصري، فيخاطب النيل بأن زمن الغفلة قد وَلَّى، وعهد التواني بلا رجعة قد ذهب، وأيام التخاذل قد انقضي عهدها، فقال على وزن (بحر الطويل) [١] :

مَضَى زَمَنُ التَّنْوِيمِ يَا نِيلُ وانْقَضَى فَفِي مِصْرَ أَيْقَاظٌ عَلَى مِصْرَ تَسْهَرُ

كما رمز الشاعر إلى مصر بالنيل، حين تحدث عن عودة الزعيم (سعد زغلول) من بلدته إلى مصر، وجعله كالأسد الذي حَلَّ في عرينه، وكان يعني بزعامة النيل زعامته لمصر، فهو قائدها وزعيمها وثائرها المناضل من أجلها، فقال مشيراً إلى هذا العود الحميد على وزن (بحر الكامل التام) [٢] :

هذا زَعِيمُ النِّيلِ حَلَّ عَرِينَهُ بَعْدَ الغِيَابِ فيَا وُفُودُ تَدَفَّقِي

وحين يُؤْثِر (محمد فريد) النيل على أمواله وولده وأهله، وعلى كل مَنْ يُحِبُّ ويَهْوَى، فيجعل الإيثار هنا رمزاً لإيثار مصر على كل شيء سواها، قَلَّ هذا الشيءُ أم كَثُر، عَظُمَ أم حقر، صَغُرَ أم كَبُر، فيقول على وزن (بحر الرَّمَل التام) [٣] :

آثَرَ النِّيلَ عَلَى أَمْوَالِه وَوُلْدِهِ وَأَهَاهُ وَهَوَاهُ وَالوَلَدْ

يَطْلُبُ الخَيْرَ لِمِصْرٍ وَهْوَ فِي شِقْوَةٍ أَحْلَى مِن العَيْشِ الرَّغَدْ

وعندما يحدثنا حافظ عن فتى النيل الذي أيقظ الهجوع، وأحْيَا الموتى، وبعث في الأمة روحاً جديدةً وثَّابَةً إلى التَّحَرُّرِ والعُلا، فيقول على وزن (بحر البسيط

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٤١ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١١٩ .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٩٨ .

التام)[١] :-

اللهُ أَكْبَرُ هَذا الوَجْهُ أَعْرِفُهُ هَذا فَتَى النِّيلِ هَذا المُفْرَدُ الْعَلَمُ

وفي استقبال اللورد (كرومر) بعد عودته من مصيفه عقب حادثة دنشواي، وبعد أن أرسل تقريره المُسِئ عن مصر، وتبين فيه طعنه على المصريين، ووصفهم بأنهم لا يرعون جميلا، وقف حافظ مدافعاً عن مصر، مبيناً لهم كذب ادعائهم وافترائهم، وأننا بما فعلوه معنا كأننا أصبحنا الجناة وهم الضحية، فقال مخاطبا (كرومر) في تَهَكُّمٍ وتقريعٍ وتوبيخٍ بأنَّ صَدْرَ المصريين إذا ضاق بما حدث، فلتكن أنت أيها الجاني أكثر سعة وحلماً وصبراً على ما أصابنا يوم صيد الحَمَام الذي كان سبباً في حادثة دنشواي على تفعيلات (بحر الكامل التام) [٢] :

إنْ ضَاقَ صَدْرُ النِّيلِ عمّا هَالَهُ يَوْمُ الحَمَامِ فإنَّ صَدْرَكَ أَرْحَبُ

أوَ كُلَّمَا بَاحَ الحَزِينُ بِأَنَّة أَمْسَتْ إلى مَعْنَى التَّعَصُّبِ تُنْسَبُ [٣]

رِفْقاً عَمِيدَ الدَّوْلَتَيْنِ بِأُمَّة ضَاقَ الرَّجَاءُ بِهَا وضَاقَ المَذْهَبُ [٤]

فقد رمز لِضِيقِ صدر المصريين بضيق صدر النيل، والنيل هنا رمزٌ لمصر، وقد ضاق صدر النيل وسكانه بسبب ما أفزعه في الحادث الرهيب في (دنشواي)، وفي ذلك معنى طريف يُنْبِئُ عن " اتساع صدر اللورد (كرومر) لسماع شكاية المنكوبين والمُرَوَّعِين اتساعاً يضيق عنه صدر النيل، وفي ذلك ما يوحي بالسخرية والتهكم من ( كرومر)، وهو ما عُرِفَ بقسوة القلب، وتَبَلُّدِ الحِسّ، الأمر الذي جعل الشاعر يَجِدُّ في تَصَيُّدِهِ لاستمالة هذا الجبَّار المتسلط " [٥] .

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٦١ .

(٢) ديوان حافظ، جـ: الثاني، ص:. ٢٣ .

(٣) الأنة: من الأنين وهو التأوه والتوجع .

(٤) عميد الدولتين : أي عميد الدولة الانجليزية والمصرية

(٥) منتخبات من الأدب العربي الحديث (دارسة فنية)، محروس منشاوي الجالي، ص: ٦٧، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، د/ ت، بتصرف .

وهكذا كانت مصر هي الثائرة، وهي الغاضبة، وهي المفاخرة والمباهية، وهي الداعية والواعدة، وهي المهنئة، وهي المخاطبة، وهي المعطية، وظلت مصر هي النيل، والنيل هو مصر، إذا ذكرت مصر اقترن اسمها بالنيل، وما كان لنا أن نتصور مصر إلا أنها هي النيل، والنيل هو مصر، يُعِين على هذا التداخل رواسبُ الماضي، ونوازع الحاضر، ودوافع اليقظة ومطامحها وأمَلُها في مستقبلٍ مضيء [١] .

(١) ينظر: النيل في الأدب المصري، د/ نعمات أحمد فؤاد، ص: ٣١٢ .

## المبحث الثاني

## الواقعية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم

في الوقت الذي كان فيه الأدب الرومانسي يُسرف في التعبير عن نزعته الفردية، ويُحَلِّق في سماء الخيال، كان العلم يتقدم، ويؤسس نفسه على دعائم من العقل والتجربة والتحَرِّي، وكان هذا العلم يعيش على الأرض مع الواقع والحقيقة، وكان الأدب العربي في اتجاهه الواقعي لم يتَرَسَّم خُطَى الواقعية الغربية بنظرتها المتشائمة ورفضها للحياة، بل نهج منهجاً خاصاً في واقعه العربي بمشكلاته الاجتماعية وقضاياه السياسية .

وقبل أن ندخل في خضم التطبيق لهذا المنهج على شعر النيل عند حافظ إبراهيم، فإننا نسلط الضوء على شئ من التأصيل الموجز لهذا المذهب، فالواقعية " من المصطلحات المطاطة والفضفاضة التي تختلف مفاهيمها باختلاف ميادين النشاط الإنساني من جهة، وباختلاف اتجاهات النقاد والأدباء ومُنَظِّرِي الأدب من جهة أخرى"(١)، ففي السياسة –على سبيل المثال لا الحصر– يعني مصطلح الواقعية: " القبول بالأمر الواقع، والاعتراف بالأوضاع السائدة "(٢) .

أما في الجانب الأدبي: فإن مصطلح الواقعية يقصد به أحياناً " ملاحظة الواقع وتسجيل تفاصيله، وتصويره تصويراً فوتوغرافياً حرفياً "(٣)، ويقصد به أحياناً أخرى " الحيادية أو الموضوعية الصادقة التي تمنع تَسَرُّب أفكار الكاتب وعواطفه ومزاجه الذاتي إلى أعماله الأدبية "(٤) .

(١) الواقعية وتياراتها في الآداب السردية الأوربية، د/ الرشيد بو شعير، ص: ٧، ط: الأولى، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٦م .

(٢) الواقعية وتياراتها في الآداب السردية الأوربي، د/ الرشيد بو شعير، ص: ٧ .

(٣) الأدب ومذاهبه، محمد مندور، ص: ٨٢ .

(٤) الأدب ومذاهبه، محمد مندور، ص: ٨٢ .

فحينما نتتبع خطى المنهج الواقعي في حياة حافظ إبراهيم وشعره، سنجد أنفسنا أمام شاعر له نشأته وظروفه الخاصة، فقد كانت هذه النشأة لها أثرها الواضح على حالته النفسية، فكانت مستقرة راضية حيناً، وكانت سيئةً ناقمة على الواقع في أحيان أخرى كثيرة؛ إذ إن ولادته في أحضان نهر النيل ووجود أصدقائه وأحبابه بجانبه إلى غير ذلك يعتبر من الجوانب الإيجابية التي تُعْلِي هِمَّتَه، وتعالج نفسيته، وترفع من شأنه، أما في الجانب الآخر نجد بؤسه وتحمله للمصاعب والأهوال داخل وطنه وخارجه، وكذلك دفاعه المُسْتَمِيت عن نفسه وأهله ووطنه، كل ذلك وغيره له تأثيره السلبي الواضح على حالته النفسية السيئة .

وحينما نُمْعِن النظر في الجانب الواقعي لشعر النيل عند حافظ، سنجد أنه استخدم لفظة النيل في الأعم الأغلب بمعنى النهر، وليست رمزاً لمصر، وفي هذا الموطن " استعان حافظ بالنيل كمقوم من مقومات مصر، وعميد يحمل عنها الأحداث، ويتجاوب معها، ويشارك فيها" [(١)].

وحينما أراد الشاعر أنْ يُسَخِّر النيل لخدمة أهدافه الوطنية، استغل فاجعة موت المناضل الوطني( مصطفى كامل)، وطلب إليه أنْ يكون جريانه في مصبه دماً بدلاً من أن يكون ماء، حزناً على فَقْدِ هذا الزعيم الوطني الذي بَكَتْ عليه البلاد والعباد، فيقول على وزن (بحر الطويل) [(٢)] :

**فيَا نِيلُ إنْ لَمْ تَجْرِ بَعْد وَفَاتِهِ دَماً أحْمَرَ لا كُنْتَ يا نِيلُ جَارِي**

وحينما أراد أن يتحدى الاحتلال الإنجليزي، ويتهكم بهم، ويسخر منهم، اتخذ من النيل وسيلة لتعجيزهم وإظهار ضعفهم، وما جاء استخدام الشاعر لكلمة النيل في شعره إلا لهدف وطني، يُظْهِر من خلاله عجزهم وضعفهم، وفي هذا استشعارٌ

(١) النيل في الأدب المصري، د/ نعمات أحمد فؤاد، ص: ٣٣٨ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١٥١ .

كبيرٌ لعظمة هذا النهر، وبيانٌ عظيمٌ لما حَبَا الله به المصريين من مظاهر الطبيعة القوية الغالية التي لا يستطيع أحد رَدَّ عَزْمِها، ولذا كان أسلافنا المصريون " يُقْسِمُون بِمَجْدِ النيل مقروناً بِمَجْدِ مصر في مقام الرَّوْع، وكأنَّهم يُوحُون برهبته إلى عدوهم لِيَرْعَوِي"(١)، ومن ذلك ماذكره الشاعر في فضل النيل مع غيره من مقومات الطبيعة كالضياء، والنسيم، وهذه الثلاثة من أهم الدعائم والمقومات التي تنتمي إلى عالم الطبيعة، بل إلى عالم الحياة في مصر، فقال على وزن (بحر الخفيف التام) (٢) :

**حَوِّلُوا النِّيلَ واحْجُبُوا الضَّوْءَ عنَّا واطْمُسُوا النَّجْمَ واحْرِمُونا النَّسِيمَا**

ثم يستعين الشاعر/ حافظ إبراهيم بالنيل، فيخاطبه بمواجهة هذا المحتل الغاشم الذي شَبَّهَه بفرعون، وهو يُكَرِّر هذا اللفظ على الأسماع أكثر من مرة، حتى إنه عَبَّرَ بقوله: (ترى في حِمَى فرعون)؛ لما كان يُعْرَف به هذا الطاغية من جبروت وظلم وطغيان، ولذلك فإن حافظ يمنح النيل الحياة الإنسانية، ويجعل منه شخصاً يخاطبه مخاطبة العقلاء الأوفياء، وهذا هو المعروف في الجانب النقدي بـ (التشخيص) وهو: "منح الحياة الإنسانية لما ليس بإنسان" (٣)، ويعتبره كالبشر في أحاسيسهم وتفكيرهم وأفعالهم، فيسأله على سبيل السخرية والتهكم من هذا الاحتلال البغيض بعد رحيل (كرومر)، لِمَ لَمْ نَرَ الأهرام قد مالت، والأرضَ قد اضطربت بسبب رحيل هذا الفرعون؟ أَلَمْ تَجْزَعْ على رحيله، أَمْ أَنَّك لَمْ تَرَ في بقائِه الخير، وفي حُكْمِهِ الاستقرار والرخاء والأمن؟، فقال على وزن (بحر الطويل) (٤) :

(١) النيل في الأدب المصري، ص: ٦٨ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٠٨ .

(٣) تطور الأدب الحديث في مصر، د/ أحمد هيكل، ص: ٣٣٣ .

(٤) ديوان حافظ، ص: الثاني، ص: ٢٧ .

فَلِمَ لا نَرَى الأهْرَامَ يَا نِيلُ مُيّداً وفِرْعَوْنُ عَن وَاديك مُرْتَحِلٌ غَدَا؟[1]

كَأنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ علَيْه ولَمْ تَكُـنْ تَرَى فِي حمَى فِرْعَوْنَ أمْناً ولا جَدَا [2]

ويسير الشاعر بنا في هذا الإطار، فيبين عِظَمَ المصيبة من جانب، ويدعو إلى المشاركة في الأحزان من جانب آخر، فيستمد من نِيلِ مصر المدد والعون على مواصلة الكفاح، وتمجيد الزعماء والوطنيين المخلصين، ويستشهد بيومٍ صعبٍ على المصريين، يوم أن أصيبوا بموت الزعيم (محمد فريد)، ولذلك طلب من النيل أن تنهمر مياهه العذبة دمعاً؛ لتكون مياهه مدداً وعوناً له على ما أصابه من الوجد والألم النفسي، وذلك حين قال على وزن (بحر الرَّمَل التام)[3] :

أيَّهَا النِّيلُ لقَدْ جَلَّ الأسَى كُنْ مِدَاداً لِي إذا الدَّمْعُ نَفِدْ

وفي موطن آخر نرى الشاعر يَتَّخِذ من النيل وسيلةً لإيقاظ هِمَم المصريين، وتنبيه الغافلين، والدعوة إلى الثورة على هؤلاء الغاصبين، من خلال أمنية يرجوها من النيل، بألا يَحْلُو مَوْرِدُه، ولا يَطِيبُ ماؤه لمن لا يخشى الله في وطنه، ولذلك يواصل ثورته بادئاً حديثه بهذا الاستفهام الذي ساقه بقوله فيما سيأتي (متى أرى النيل)، والذي يحمل معنى العجلة واللهفة، وينطوي على الاستبعاد والاستبطاء، وتمتلئ نفسه شعوراً بالحنق والغيظ على كل خانع متخاذل لا يخشى الله في أمته، ولا يراقب ربه فيها، متمنياً أنْ يُحْرَم هؤلاء مِن عَذْبِ نِيلِها وحلاوةِ مورده، فجاء بعد ذلك راثياً لحال مصر قائلاً على وزن (بحر البسيط التام) [4] :

متَى أرَى النِّيلَ لا تَحْلُو مَوَارِدُهُ لِغَيْرِ مُرْتَهِبٍ للهِ مُـرْتَقِبِ ؟

(١) مُيَّدا : مَائِلة مُضْطَرِبة، وواحدها أو مفردها: مائد .

(٢) الجَدَى بفتح الجيم وتخفيف الدال: العطاء .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٩٨ .

(٤) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص:. ١١٨ .

فقَدْ غَدَتْ مِصْرَ فِي حَالٍ إذا ذُكِرَتْ جَادَتْ جُفُونِي لهَا بِاللّؤْلُؤِ الرّطِبِ

كأنَّنِي عِنْد ذِكْرِي مَا أَلَمّ بِهَا قَرْمٌ تَرَدَّدَ بَيْن المَوْتِ والهَرَبِ(١)

لقد بَدَتْ على حافظ إبراهيم غضبةٌ شديدة؛ بسبب رؤيته لخنوع المصريين وتكاسلهم عن رفعة شأنهم، فهو الذي يزأر في قومه، ويدعوهم إلى الجد والعمل، والمثابرة والكفاح، ونبذ الفرقة والخلاف، ناصحاً لهم بأن يَرِدُوا موارِدَ الأحرار الشرفاء، وألا يَهِنُوا أو يضْعفوا في مواجهة الخطوب والأحداث التي يعيشون فيها بسبب الاحتلال، ومن ثم فهو يدعوهم إلى الجد والاجتهاد والمثابرة، فيضرب لهم المثل بالنِّيل الذي لم يغب عن خاطره، ويستمد منه أيقونةً يعقد من خلالها مقارنة بين حال المصريين والغربيين، ولكن يبدو أنها مقارنة غير متكافئة بين هذين الحالين؛ لأن الغربيين قد جَدُّوا واجتهدوا حتَّى تَحَقَّقَ لهم ما أرادوا، أما قومه من المصريين فكان حالهم وموقفهم موقف المتخاذلين البائسين اليائسين في خنوعهم وتخاذلهم؛ لأنهم لا يستغلون عقولهم وذكاءهم في تحقيق الحرية لهم وبلادهم، مُشَبِّهاً إياهم بالماء الذي طال ركوده فأفسده عدم جريانه حيناً، وبماء النهر الذي ضاعت أهم صفاته، فتلاشت عذوبته وسط بحر خضم شديد الملوحة حيناً آخر، فقال على وزن (بحر الكامل التام) (٢) :

وَانْظُرْ إلَى الغَرْبِيِّ كَيْفَ سَمَتْ بِهِ بَيْنَ الشُّعُوبِ طَبِيعَةَ الكَدَّاحِ

واللهِ مَا بَلَغَتْ بَنُو الغَرْبِ المُنَى إلَّا بِنِيـّاتٍ هُنَاكَ صِحَاحِ

رَكِبُوا البِحَارَ وقَدْ تَجَمَّدَ مَاؤُها والجَوَّ بَيْنَ تَنَاوُحِ الأَرْوَاحِ

والبَرَّ مَصْهُورَ الحَصَى مُتَأَجِّجاً يَرْمِي بِنَزَّاعِ الشَّوَى لَوَّاحِ

(١) القَرْم: السيد العظيم، والبطل الشجاع .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٠٣، ١٠٤ .

يَلْقَى فَتِيَّهُمُ الزَّمَانَ بِهِمَّةٍ عَجَبٍ وَوَجْهٍ فِي الخُطُوبِ وَقَاحِ

وَابْنُ الكِنَانَةِ فِي الكِنَانَةِ رَاكِدٌ يَرْنُو بِعَيْنِ غَيْرِ ذَاتِ طِمَاحِ

لا يَسْتَغِلُّ كَمَا عَلِمْتَ ذَكَاءَهُ وذَكَاؤُهُ كالخَاطِفِ اللَّمَّاحِ

أمْسَى كمَاءِ النَّهْرِ ضَاعَ قُرَاتُهُ فِي البَحْرِ بين أُجَاجِهِ المُنْدَاحِ

هكذا كانت طبيعة حافظ ومزيته في شعره عموماً، فلم نعرف شاعراً عربياً قبله ولا معاصراً له أفاض في العاطفة الوطنية والاجتماعية إفاضته، فيجعل من النيل وسيلة أخرى لنقد العرب، ويعرض لهيئتهم عموماً ولهيئة المصريين خصوصاً في التواكل والركود والتكاسل، ووَلَعِهِم بالمظاهر البَرَّاقة والأشكال الخَدَّاعة في زمن الجد والاجتهاد، وبذلك ينعى من خلالها وقوف المصريين عند القديم، واعتمادهم على غيرهم، ورضوخهم لسيطرة الاحتلال عليهم، وعدم حرصهم على تجديد حياتهم والرقي بها، فيقول على وزن (الخفيف التام) [1] :

والجَوَارِي فِي النِّيلِ مِنْ عَهْدِ نُوحٍ لَمْ يُقَدَّرْ لِصُنْعِهَا تَغْيِيرُ

وَلِعَ القَوْمُ بالنَّظَافَةِ حَتَّى جُنَّ فِيهَا غَنِيُّهُمْ والفَقِيرُ

فإذا سِرْتُ فِي الطَّرِيقِ نَهَاراً خِلْتُ أنِّي علَى المَرَايَا أسِيرُ

ثم يبين الشاعر للمصريين فضل هذا النيل الذي حباهم الله به، فيُؤْثِر ماءَهُ على مياهِ أيِّ نِيلٍ آخر، كما أن مَنْ شَرِب منه يَنْسَى كُلَّ مَذاقٍ سواه، ولذلك فهو يبين حال أهل لبنان في حُبِّهِم لِنِيلِ مصر، فيتحدث بلسانهم وهو يُحَيِّي الشاعر (خليل مطران) على أوزان (بحر الخفيف التام)[2] :

قَدْ نَزَلْنَا جِوَارَكُمْ فَحَمِـدْنَا مِنْكُمُ الْوُدَّ والنَّدَى والذِّمَامَا

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٣٢١ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٦٠، ٦١ .

وحَلَلْنَا فِي أَرْضِكُمْ فأَصَبْنَا مَنْزِلاً مُخْصِباً وأَهْلاً كِرَامَا

وغَشِينَا دِيَارَكُمْ حَيْثُ شِئْنَا فَلَقِينَا طَلاقَةً واتِّسَامَا

وشَرِبْنَا مِنْ نِيلِكُمْ فَنَسِينَا ماءَ لُبْنَانَ سَلْسَلاً والغَمَامَا

وهكذا كان النيل في شعر حافظ متنوع في اتجاهاته ومضامينه، فتارة يأتي كلامه عنه في بيان مزاياه ، والاعتراه بفضله، وتارة أخرى يستمد منه المدد والعون على مواصلة الكفاح، وتمجيد المخلصين من أبناء الوطن، وتارة ثالثة نراه مشاركاً في الأحداث التي تَمُرُّ بها البلاد، كما يتخذ منه وسيلة لإيقاظ الهم، وتنبيه الغافلين ونقد المآخذ والعيوب .

## الفصل الثالث

## من الجوانب الفنية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم

ويشتمل على عدة مباحث:

١- التجربة الشعرية .

٢- المعجم الشعري .

٣- الصورة الشعرية .

٤- الموسيقى .

## المبحث الأول

## التجربة الشعرية

إن الشاعر العربي يَصْدُر في شعره عن موهبةٍ أصيلة ونفسٍ شاعرة متوهجة، متأثراً بتجربته التي تكون في بعض الأحيان خاصة به، وفي بعضها الآخر تكون عامة تعالج مشكلات المجتمع من حوله، ثم يَصُوغ هذه التجربة في إطارٍ خاصٍ وصياغةٍ تحمل روحَه وذاته .

ولم يَغفل النقاد القدامى عن إشارتهم إلى قيمة التجربة الشعرية وصدق معاناة الشاعر لها، فقد أشار إلى ذلك ابن رشيق القيرواني بقوله: " وقيل: عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر، ويقال: إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل، وأهْوَلُ ما يكون على العَالِم، وأتْعَبُ أصحابه قلباً مَنْ عَرف حق معرفته، وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته، وقيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ فقال: لأننا نقول وقلوبنا تحترق"(١) .

أما في العصر الحديث: فقد عرَّفها أدباء ونقاد كثيرون، ومنهم –على سبيل المثال لا الحصر– الدكتور/ محمد السعدي فرهود، فقال بأنها: " إلهامٌ مُثِيرٌ من داخل النفس أو خارجها، وحركةٌ ذهنيةٌ صادرة عن هذا الإلهام، بينهما ارتباطٌ لصيقٌ فوريٌ ومتفاعل"(٢) .

فهي تُعَدُّ مظهراً من مظاهر تطور الخيال الفكري في العصر الحديث، وأثراً من آثار التطور النقدي الذي يأخذ في النضوج والاكتمال يوماً بعد يوم، ومن هنا لابد للتجربة أن تكون صورة نابضة لنفس قائلها وعاطفته وتجاربه، لا أن تكون عن تقليد أو محاكاة؛ إذ إن لكل شاعر تجاربه وانطباعاته ولمساته في الإنسان

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ص: ١١٧، ج: الأول، ط: الرابعة، دار الجيل، بيروت، لبنان ١٩٧٢م .

(٢) قضايا النقد الأدبي الحديث، د/ محمد السعدي فرهود، ص: ٨٢، ط: زهران، مصر ١٩٦٨م .

والكون من حوله، وما يزخران به من معان وألغاز وأسرار، ولكي يكون الحكم ممكناً على التجربة بالنجاح، فلابد وأن تترك أثراً في نفس السامع، وأن تتجلى في نفسه من أصدائها ما يَهُزُّ المشاعرَ ويُشْبِع العواطفَ والوجدان .

وقد جاءت التجربة الشعرية عند حافظ إبراهيم غنية ومثيرة بالعواطف الجياشة، فكان يكتب شعره منطلقاً من مشاعر وطنية صادقة، وأحاسيس مفعمة بِحُبِّه لبلده، وكانت عواطفه تتفاعل سريعاً مع أي خطب يحل بوطنه، فيترجم هذا الإحساس في شعره بفيض من العاطفة الصادقة .

وفي حديثه عن النيل ظهرت عاطفته متدفقة صادقة؛ لأن تجربته للأحداث التي عاشها جعلته قوي العاطفة ملتهب الحرارة الشاعرية، فلم تضعف أحاسِيسُه في أي موطن من المواطن؛ لأنها نبعت من وجدان صادقٍ بقضيته وقضايا وطنه، ومن ثم تُرْجِم هذا الإحساسُ في شعرٍ صادقٍ قويٍ مؤثر، مستجيباً لطبيعة نفسه أولا، ولروح العصر وما فرضه من انتماء للأرض والنيل والمجتمع ثانيا، مُعَبراً عن انفعالات جاشت به نفسه من خلال تجربة صادقة، تنبعث من وجدان صادق، وتنبع من ضميرٍ حَيّ، وتنطلق من قوة انتمائه الوطني والاجتماعي .

وتتجلى هذه التجربة الصادقة في انتقائه لألفاظه التي عبَّر بها، وكذلك معانيه التي ساقها، حيث كان ينتقى من الألفاظ ما يتناسب مع تجربته، وما يقوى على ترجمة أحاسيسه ومشاعره، وقد ظهر ذلك واضحاً حينما أراد أن يستنهض هِمَمَ أبناء وطنه، ويستحث قوى الشعب على العمل الجاد، فيقول على وزن(بحر الكامل التام) [1] :

**عارٌ علَى ابْنِ النِّيلِ سَبّاقِ الوَرَى  مَهْمَا تَقَلَّبَ دَهْرُهُ أنْ يُسْبَقا**

**أوَ كُلَّمَا قالُوا: تَجَمّعَ شَمْلُهُـم  لَعِبَ الشِّقَاقُ بِجَمْعِنَا فَتَفَرّقَا**

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٦٠، ٦١ .

فَتَدَفَّقُوا حُجَجاً وحُوطُوا نِيلَكُـمْ فَلَكَمْ أَفَاضَ علَيْكُمْ وتَدَفَّقَـا

فلو تأملنا هذه الكلمات التي اختارها ليستحث أمته على أن تَسترد مجدها وتتشبث بوحدتها، لوجدنا منها هذه الكلمات (سَبَّاق) على صيغة المبالغة (فَعَّال)، وكذلك (أنْ يُسْبَقا) وما فيهما من معنى التنافس، و(التجمع، والشمل) وما فيهما من معنى التوحد، و(الشقاق، والتفرق) عكس المعنى السابق، ثم التعبير بـ (التدفق، والفيض) وهما من صفات النيل، رامزاً بذلك للخير والعطاء، ومُرَغِّباً لِمَا دعا إليه .

فالتجربةُ الشعرية إنما هي "حالة شعورية تلابس الشاعر، وتوجِّهُه إلى موضوعٍ، أو واقعةٍ، أو مَرْأى من مرائي الوجود، بحيث تؤثِّر فيه تأثيراً قوياً، يَدْفعه في وَعْيٍ أو في غير وعيٍ إلى التعبير عما تأثَّر به "[١]، ومن خلال النظرة التأملية الفاحصة في التجربة الشعرية لدى الشاعر/ حافظ إبراهيم، يتضح أنَّ سماتها قد تحققت بشكلٍ ملحوظٍ في شِعْرِه، ولا عجب في ذلك فهو شاعرٌ صادق، تتضح تجربتُه في نفسه بعناصرِها ومعالِمِها وأبعادِها، فَيُعَايشَها معايشةً صادقة حتى تكتمل صورتُها، ويَتِمَّ تكوينُها، ويُتَرْجِمَ مشاعرَهُ وأحاسيسَه تجاهها .

وهذا يتضح في أثر الحزن والألم النفسي الذي أصاب الشاعر جَرَّاء ما حدث له ولبلده، ثم البكاء والأنين والضَّجَر الذي غَلَّفَ فؤاده، وما في ذلك من معان تكشف عن عاطفته الفياضة في رثائه لمحمد فريد، كتلك الألفاظ التي هي من لوازم الرثاء والبكاء، كـ(الأسى، والدمع، والذبول، والنواح، والحداد)، إلى جانب الأفعال المنفية (لا تبْسِمِي، لا تبتهج)، وذلك حين قال على وزن (بحر الرَّمَل التام) [٢] :

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، مصطفى عبد اللطيف السحرتي، ص:٢٤، ٢٥، ط: المقتطف والمقطم ١٩٤٨م .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٩٧ .

أيّهَا النِّيلُ لقَدْ جَلَّ الأسَى كُنْ مِدَاداً لِي إذا الدَّمْعُ نَفِدْ

واذْبُلِي يَا زَهْرةَ الـرّوْضِ ولا تَبْسِمِي للطَّلِّ فالعَيْشُ نَكِدْ

والْزَمِ النَّوْحَ أيَا طَيْـرُ ولَا تَبْتَهِجْ بِالشَّدْوِ فالشَّدْوُ حَـدَدْ

فَلَقَدْ وَلَّى فَرِيدٌ وَانْطَوَى رُكْنُ مِصْرٍ وفَتَاهَا والسَّنَدْ

لقد كان حافظ مُعَبِّراً أصدق تعبير عن تجربته عن طريق براعته في استخدام الألفاظ المعبرة عن عاطفته، فقد استبَدَّتْ به عاطفة السخط والغضب، وكان هذا الانفعال العاطفي ملموساً في تدفق عاطفته، وما حفلت به من غيظٍ وحَنَقٍ وحِدَّةِ انفعال على هذا المصري الذي جعله الاحتلال أداة لتعذيب إخوانه وقتلهم في دنشواي، وهي تجربةٌ إنسانية ذاتية عايشها بمشاعره وأحاسيسه، فوقعت في نفسه الشاعرة، وتَشَبَّعَ بها وجدانُه، ففاضت في نفسه أصداؤها، وصاغها في عباراتٍ تكشف عن حدثٍ وجداني عظيم عندما قال على وزن (بحر الخفيف التام) [1] :

لا جَرَى النِّيلُ فِي نَوَاحِيكِ يا مِصْـ ـرُ ولا جَادَكِ الحَيَا حَيْثُ جَادَا

أنْتِ أنْبَتِّ ذلك النَّبْتَ يَا مِصْـ ـرُ فأضْحَى علَيْكِ شَوْكاً قَتَـادَا

أنْتِ أنْبَتِّ نَاعِقاً قامَ بِالأمْـ ـسِ فأدْمَى القُلُوبَ والأكْبَـــادَا

إيهِ يَا مِدْرَةَ القَضَاءِ ويَا مَنْ سَادَ فِي غَفْلَةِ الزَّمَانِ وشَادَا

أنْتَ جَلَّا دُنَا فَلا تَنْسَ أنَّا قَدْ لَبِسْنَا علَى يَدَيْكَ الحِدَادَا

فالشاعر هنا صادقٌ في تجربته الشعرية؛ لأنه لم يفتعل هذه التجربة أو يتكلف معانيها، وإنما استمدها من واقع الأحداث الجارية، ونَسَجَ خُيُوطها من

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٢ .

أعماق حِسِّهِ وانفعاله بما يراه ويسمعه عن هذه المأساة .

ثم يسترسل الشاعر في تجربته الشعرية، ويضرب لنا المثل في شخص إنسان تملأ نفسَه الآلامُ والأحزانُ ، وتُغَالِبُه المصائبُ ومتاعبُ الحياة؛ ليكشف عن عاطفة السأم والضيق في هذا الإنسانِ الذي يعبر عن جموع المصريين بصفة عامة، متخذاً من أفاعيل الاحتلال الذي يستخدم سياسة النفاق والخداع سبيلاً لفضح سياسته والتنديد بها، في محاولة لقمع هذا المحتل، ومقاومة هذا الخصم والتصدي له، فيقول على وزن (بحر الخفيف التام) [١] :

قدْ مَلَكْتُمْ فَمَ السبيل عَلَيْنَا وَفَتَحْتُـــمْ لِكُلِّ شَعْوَاءَ بَابَا

وأتَيْتُم بِالحَائِمَاتِ تَرَامَى تَحْمِلُ المَوْتَ جَاثِماً والْخَرَابَا [٢]

ومَلأْتُمْ جَوَانِبَ النِّيلِ وَعْداً وَوَعِيداً، ورَحْمَةً، وعَذَابَا

وقد وازن الباحث بين عدد من الشعراء مع حافظ إبراهيم، فجاءت الموازنة قائمة على بيان العاطفة والتجارب الشعرية عند كل منهم، وكذلك اختيار الألفاظ والأساليب ورشاقتها، وغزارة المعاني والسَّبْق فيها، وبيان الصور البلاغية وإجادتها عند البعض دون الآخر .

فها هو شاعر العروبة والإسلام/ أحمد محرم حين وصف النيل بقوله على وزن (بحر المتقارب التام)[٣] :

فَيَا نِيلُ أنْتَ الهَوَى والحَيَاةُ وأنْتَ الأمِيرُ وأنْتَ الأبُ

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٣٢.

(٢) المقصود بالحائمات: الطائرات .

(٣) ديوان أحمد محرم، تحقيق: أ/ محمود أحمد محرم، ج: الأول، المجلد: الأول، ص: ٣٩، ط: الأولى، الفلاح، الكويت ١٩٨٤م .

ويَا نِيلُ أنْتَ الصَّدِيقُ الوَفِيّ وأنْتَ الأخُ الأصْدَقُ الأطْيَبُ
وأنْتَ القَرِيضُ الذي أقْتَفِي فَيَزْهَى بِهِ الشَّرْقُ والمَغْرِبُ
ولَوْلاك تَعْذِبُ لِلشَّارِبِينَ لَمَا سَاغَ مَوْرِدَهُ الأعْذَبُ

فقد تَجَلَّى في شعر أحمد محرم حُبَّ مصر ونيلها الفياض، وقد كان وصفه فائقاً نشعر فيه بصدق العاطفة، فجاءت العاطفة في تجربته الشعرية قوية مُفْعَمَةً بالصدق المُمتزج بالمشاعر والأحاسيس الصادقة، فَرَسَمَتْ صوراً نفسيةً عميقةً مؤثرة، وكأنه يتحدث مع صديقٍ له يناجيه، أو أخٍ ذي مروءةٍ يُفضي إليه بمكنون أسراره، وبذلك أثبت أحمد محرم من خلال تجربته الشعرية الصادقة أنها روح تنبض من أعماق قلبه، ونيرانٌ تتصارع بداخله، حتى تخرج للقارئ على هيئة عملٍ فنيٍ يشعر به المتلقي دون احتياجٍ لمن يُفَسِّره له أو يوَضِّح معانيه .

أما حافظ إبراهيم فقد عبَّرَ عن قضيته بأجود شِعره؛ وذلك لعمومية التجربة فيها، وتحليق الشاعر في أفق الموضوعية، وإن كانت تبدو في أول الأمر أنها تجارب ذاتية، إلا أن الشاعر قد نفذ من خلالها إلى تجربة إنسانية عامة، فاستعان بالألفاظ الموحية التي تساعده على إبراز عواطفه وخياله المُعَبِّر وصدقه الفني؛ لذلك جاءت تجربته الشعرية صادقة جديرة بالبقاء والتقدير العالي .

فكلاهما قد جمع بين المكانة الوطنية الثائرة، والأدبية العالية، والشاعرية المتوهجة؛ لذا جاءت أوجه التشابه بينهما كبيرة، فكانت العاطفة الإيمانية عند كلٍ منهما صادقة، والتناسق البديع محفورٌ في نظمِ كل منهما لشعره، إلا أن حافظ إبراهيم استطاع بحكم نشأته المأساوية، وتَمَزُّقِ قلبه وألمه النفسي في معظم حياته أن يعبر عن أفكاره من خلال عاطفة جياشة حارة، تنطق بفداحة الخطب وعظم المصاب، وهذا يوضح أن معظم ما أنشده حافظ في معالجته لشعره في نهر النيل، كان من هذا اللون الزاخر بعمق العاطفة، فقد واجه الاحتلال، واستنهض

الهمم، وثار على الواقع، وانتقد العيوب، وتعَلَّق بالأمال في الممدوحين رجاء خدمة أوطانهم، ومن ثم اتسمت تجربته بالصدق الشعوري، فجاءت معاني أبياته مطابقة لوجدانه، مُعَبِّرةً عن حقيقة مشاعره وانطباعاته .

## المبحث الثاني

### المعجم الشعري

اللغة الشعرية لغة فريدة ومتميزة؛ حيث إن المادة التي يستقي منها الشاعر العربي مضمون قصيدته إنما هي اللغة العربية، وهذه اللغة العربية هي أفضل اللغات الإنسانية على الإطلاق؛ لأنها لغة القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فهي الأداة التعبيرية التي يُعَبِّر بها الشاعر عن وجدانه ومشاعره وانفعالاته، وبذلك يُكَوِّن له قاموساً شعرياً خاصاً به .

والشاعر الحق هو الذي يختار معجمه الشعري بحاسته الفنية اختياراً يتجاوب مع ما يدور بخلده من خواطر أو تموجاتٍ نفسيةٍ وفكرية، وهذا المعجم الشعري " يُعَدُّ لبنة من أقوى اللبنات في بنية العمل الشعري، وكلما كان الشاعر موهوباً في توظيفه لهذا المعجم من خلال ثقافته وطبعه الموهوب، كانت القصيدة في محيط الإبداع الأدبي الرائد"[(١)]، وهذا يوضح أن الصياغة الأدبية في العمل الشعري " لها دورُها المُهِمُّ في بنية العمل الشعري، ومن البديهي أن كل فنان له طريقته في توظيف معجمه الشعري، حيث اختيار الكلمات وتأليفها في جمل مترابطة تُصَوِّر عوالِمَ الشعر" [(٢)]، مما يدُلُّ على أنَّ الشعراء في كل عصر من العصور لهم معاجم تُخَالِف معاجم جماهير الناس؛ لأنهم يعبرون عن العواطف والمشاعر والأحاسيس بصورةٍ أكثر عمقا .

من خلال القيم الفنية للمعجم الشعري عند حافظ إبراهيم في حديثه الشعري عن النيل، وتأثيره النفسي على عقله ووجدانه، فإن الباحث يُعَرِّج على ما يتعلق

---

(١) المطولات الإسلامية في شعر مرسي شاكر الطنطاوي (دراسة تحليلية فنية)، د/ هشام محمد البيه، ص: ٧١، ط: الأولى، مطبعة الشروق ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م .

(٢) المطولات الإسلامية في شعر مرسي شاكر الطنطاوي ، د/ هشام محمد البيه ، ص : ص : ١٧٢ .

بجوانبه التي تشتمل على الألفاظ والأساليب والمعاني .

**أولاً: الألفاظ :**

مما لا ريب فيه أنَّ الألفاظ وسيلة الأديب والشاعر في التعبير عن مكنون نفسه، وكلما كان الشاعر مُلِمَّاً بناصية لغته، كان أكثر قدرة على التعبير عن تجربته الشعرية والإفصاحِ عن انفعالاته، وأصبح اختيارُه لألفاظه سهلاً ميسورا؛ لأنها بطبيعة الحال تتوارد على فِكْرِهِ ووجدانِه، ثم تظهر على لسانه وقلمه، كل ذلك يَحدث في تَدَفُّقٍ طبيعيٍ عاطفيٍ تُحَرِّكه المشاعرُ والانفعالات، وتطاوعه مَلَكَةُ اللغةِ وسليقةُ التعبير .

وإذا كانت اللغةُ –التي هي ممثلةً في الألفاظ– وسيلة الشاعر في نقل ما يعتمل في خاطره ووجدانه، فلا شك إذن أنها من أهم عناصر الإبداع الشعري، وأن دورها أحد أكثر الأدوار خطورة في النص الأدبي، ولعل هذه الأهمية للكلمة تنبع من قدرتها على الانتقال بالوجدان من عالم التجريد إلى عالم التجسيد المُحَسّ .

والمتأمل في الألفاظ التي دارت في شعر النيل عند حافظ إبراهيم، يجد كَمَّاً ضخماً ومعجماً خاصاً من تكرار لفظ النيل في مواضع كثيرة؛ وهذا إن دَلَّ فإنما يدل على مدى أسَاه وشِدَّةِ وَجْدِهِ وألَمِهِ النفسي، وقسوةِ الفراق على قلبه عندما سافر إلى السودان، وقد برز حافظ إبراهيم في اختياره لألفاظه، فكانت ألفاظه في معظم شعره قوية رنانة، لها تأثيرها الواضح على النفس، حتى ظفر بإعجاب الأدباء والنقاد، فكان يعبر عن ذلك ويسمي هذه العملية "بالتذوق، ويمدح بعض الشعراء بأنه ذواق يريد بذلك أن له ذوقا في اختيار اللفظ واختيار الأسلوب، وقد بالغ في ذلك حتى كان جهده في اختيار الألفاظ والأساليب يفوق جهده في ابتكار

المعاني" [١]، وهذا ما ظهر جلياً في قوله وهو يخاطب النيل قائلاً على وزن (بحر الخفيف التام) [٢] :

أيُّهَا النِّيلُ كيْفَ نُمْسِي عِطَاشا ... فِي بِلادٍ رَوَّيْتَ فِيها الأنَامَا

يَرِدُ الوَاغِلُ الغَرِيبُ فيُرْوَى ... وبُنُوك الكِرَامِ تَشْكُو الأوَامَا

ففي هذين البيتين نراه يخاطب النيل، كيف يُحْرَم أبناء مصر من خيره؟ في الوقت الذي هو –أي النيل– من أهم المصادر لهذا الخير بالنسبة لأبنائه، مع أن الذي يظفر بهذا الخير العميم هم الغرباء والدخلاء .

فاللفظ يمتاز بالطلاوة، ونصاعة الديباجة، وجزالة العبارة، ولكن ليس فيه معنى عميق، أو صورة مبهرة ، وإنما جاءت معانيه دارجة ليس فيها شئ من الغرابة، فهي مما يدور في خواطر السامعين، وتتجاذبه ألسنتهم في أحاديثهم، وأبرز ما نلاحظه فيها هو حرصه على استخدام بعض الألفاظ الرنانة، أو اللافتة في استعمالها؛ لعدم شيوعها على ألسن القُرَّاء والسامعين، ككلمة (الواغل) بمعنى من يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون أنْ يُدْعَى، وكلمة (الأوام) بمعنى الظمأ [٣].

لقد كان حافظ إبراهيم " يؤمن بروعة اللفظ وأثره في نفوس السامعين؛ لأنه يرى أن الناس ما كان يعنيهم التحقيق، بقدر ما يعنيهم الاستمتاع بجزالة اللفظ، وطلاوة العبارة "[٤]، فحين يَعْرِض لظاهرة الغلاء التي عَمَّت البلاد والعباد، واكتوى بنارها الفقراء كعادتهم في كل زمان ومكان، نراه يهتم اهتماماً شديداً باللفظ؛ لكي

(١) ينظر: مقدمة ديوان حافظ، ص: ٤٠، بتصرف .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٣١٧ .

(٣) ينظر: حافظ ابراهيم شاعر النيل، ص: ١٠٢ .

(٤) حافظ إبراهيم شاعر النيل، ص: ١٠٥ .

يكون ألمه على النفس أوقع، فيَصْرُخ في أولي الأمر قائلاً على وزن (بحر الخفيف التام) [١] :

أيُّهَا المُصْلِحُونَ ضَاقَ بِنَا العَيْـ ـشُ ولَمْ تُحْسِنُوا عَلَيْهِ القِيَامَا

عَزَّتِ السِّلْعَةُ الدَّلِيلَةُ حَتَّى بَأتَ مَسْحُ الحِذَاءِ خَطْباً جُسَامَا

وَغَدَا القُوتُ فِي يَدِ النَّاسِ كالِيَا قُوتِ حتَّى نَوَى الفَقِيرُ الصِّيَاما

أصْلِحُوا أنْفُساً أضَرَّ بِهَا الـ ـفَقْرُ وأحْيَا بِمَوْتِهَا الآثامَا

وأغيثُوا من الغَلاء نُفُوساً قَدْ تَمَنَّتْ مَع الغَلاءِ الحِمَامَا

ونظراً لأنه ذاق مرارة الحرمان والجوع، فأخذ يهاجم الطبقية، ويرى في ثروة المترفين والمُنَعَّمِين نصيباً للمنكوبين والبائسين، وإذ به يُنَبِّه الأثرياء إلى القيام بواجباتهم الاجتماعية نحو الفقراء، فيسوق ذلك بألفاظ قوية، تثير المشاعر والأحاسيس بوقعها الأليم وصخبها الصارخ؛ لكي تطرق آذانهم، فينتبهوا لحال مَن خلفهم فيقول على وزن (بحر الخفيف التام) [٢] :

أيُّهَا الرَّافِلُونَ فِي حُلَلِ الْوَشْـ ـي يَجُرُّونَ لِلذُّيُولِ افْتِخَارا (٣)

إنَّ فَوْقَ العَرَاءِ قَوْماً جِيَاعاً يَتَوَارَوْنَ ذِلَّةً وانْكِسَارا

وهكذا كان حافظ مغالياً في عنايته بالألفاظ وإيثارها على المعاني غلوا شديداً، منطلقا من أن الإجادة في الشعر، تكون في طلاوة اللفظ وروعة سَبْكِه، أما المعاني فهي في نظره مستراد مشاع، ولذا يقول في حديث له مع محرر مجلة

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ج: الأول، ص: ٣١٦ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٣٥١ .

(٣) رفل في ثوبه: اختال فيه وتبختر، وحُلل الوشي: الثياب المنقوشة .

الهلال " أنا أُمِيتُ المعنى إذا لم يتفق لي لفظٌ رائع" [١]، وليس هناك من عيب عند حافظ في عنايته بجزالة اللفظ وروعة العبارة؛ إذ إن الجزالة، وسلاسة العبارة، وسطوة الألفاظ، وعذوبة الجرس ليست بالشيء الهين في عالم الشعر، بل هي ركن قوي من أركانه .

**ثانياً: الأساليب :**

إذا تأملنا في تكوين الأساليب، سنجد أنها تتكون من جمل كلامية، وهذه الجُمَل تتكون من ألفأظ، تظهر من خلالها براعة الأديب في حُسْن اختياره لكلماته وأساليبه، وهذا يوضح أن الكلمة أو اللفظة لها أهميتها البالغة في بناء الأسلوب؛ لأنها بمثابة المادة الخام التي يتشكل منها البناء اللغوي كله، فهي تابعة للألفاظ وناشئة عنها، وهي في معظمها سهلة يسيرة في شعر النيل عند حافظ إبراهيم، لكنها وإن كانت يسيرة في مبناها فهي عظيمة في مضمونها ومعناها، وقد وردت للأسلوب عدة تعريفات في الجانب الأدبي، ومنها ما عَرَّفَه عبدالقاهر الجرجاني بقوله: " هو الضَّرْب مِن النَّظْم والطريقة فيه"[٢] ، وعند ابن خلدون " المنوال الذي ينسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يُفَرِّغ فيه"[٣] ، وقد عَرَّفَ الأستاذ/ أحمد حسن الزيات الأسلوب بقوله: " طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام"[٤] .

ومن خلال التأمل الفاحص في شعر النيل عند حافظ إبراهيم، تبين أن العناصر التي ظهرت في شعر حافظ إبراهيم، وكانت موضعَ إشادةٍ من نقاد شعره

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل، ص: ١٠٥ .

(٢) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ص: ٣٦١، ط: الثالثة، المدني، القاهرة، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ- ١٩٨٨م.

(٣) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: حجر عاصي، ص: ٣٥٣، ط: دار الهلال، بيروت ١٩٨٨م .

(٤) دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، ص: ٥٦، ط: الرسالة، مصر ١٩٤٥م .

(الأسلوب أو الصياغة) التي عبَّرَ بها عن معاني شعره، فألفاظُهُ قويةٌ جزلةٌ فصيحةٌ معبرةٌ عن معناها، دالةٌ على عاطفتها، حيث إنه " كان يفتش عن اللفظ حتى يَجِد أنْسَبَه لنفسه، وأنسبه لمعناه، بل ويَعْرِض للمترادفات يقابل بينها؛ ليختار خيرَها، ويعمد إلى الأساليب يتصفحها؛ ليوائم بين المعنى واللفظ والأسلوب" (١) .

فاشتهر حافظ بديباجته الرائعة المتناسقة، حتى أثنى عليه النقاد والأدباء والشعراء، فكانوا يُحِبون في شعره هذه الديباجة الجميلة التي تتمثل في جزالة ألفاظه، ويُشَبِّهون صناعته الشعرية بصناعة (البحتري، وأبي تمام) حينما حافظ على عمود القصيدة في صياغتها القديمة، حتى قال (شوقي) من قصيدة له في رثائه مُنَوِّهاً بشعره وشاعريته على وزن (بحر الكامل التام) (٢) :

مَا زِلْتَ تَهْتِفُ بالقَدِيمِ وفَضْلِـه حتَّى حَمَيْتَ أَمَانةَ القُدَمَـاءِ

جَدَّدْتَ أُسْلُوبَ الوليدِ ولَفْظِهِ وأَتَيْتَ لِلدُّنْيَا بِسِحْرِ الطَّائِي

وهذا إقرارٌ لشاعر النيل/ حافظ إبراهيم بأنه "جمع إلى بلاغة أسلوب البحتري روعة معاني أبي تمام، وكان في الطليعة من شعراء عصره، فسار في نطاق البارودي، إلا أنه قد ابتكر في شعره منهجاً تَمَيَّزَ به عَمَّنْ يعاصرونه من الشعراء، أسلوب ساحر، وعذوبة ألفاظ، ورشاقة عبارة، وخفة موسيقى"(٣) .

وحين نعرض للأسلوب عند حافظ إبراهيم من خلال شعره في نِيلِ مصر، نرى جزالة اللفظ، وروعة العبارة، إلا أننا إذا أمعنا النظر فيما تكتنفه وتحويه الألفاظ، ما رأينا من معانيها شيئاً كبيراً يستأثر بالإعجاب، أو يأخذ بالألباب، ومن ذلك –على سبيل المثال لا الحصر– حينما وَجِّه الشاعر خطابه لسعد زغلول بعد

(١) مقدمة ديوان حافظ، أ/ أحمد أمين، ص: ٣٩، ٤٠ .

(٢) الشوقيات، المجلد الثاني، ج: الثالث، ص: ٢٤ .

(٣) الأدب العربي الحديث، د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، ص: ١٠١، ١٠٢، بتصرف .

نجاته من حادث الاعتداء عليه، نراه يبين أن الشعب يدعو الله أن يكتب لنيل مصر الاستقلال على يد سعد زغلول، ومن منطلق هذا الأمل المتعلق بالله في سعد، يوضح الشاعر إخفاق هذا المعتدى الأثيم الذي حاول النَّيْل منه؛ لأن عناية الله كانت تحفظه، وأمين وحي السماء جبريل كان يحرسه، ثم يسأل نفسه مستفهماً على سبيل التعجب كيف يموت سعد دون أن تحيا به مصر؟ ؛ إذ إن في موته خطبٌ جليل، ومصيبةٌ عظيمةٌ للأمة جمعاء، وفي ذلك يقول ناظماًعلى وزن (بحر الكامل التام)[١] :

**الشَّعْبُ يَدْعُو الله يَا زَغْلُولُ أنْ يَسْتَقِلَّ علَى يَدَيْكَ النِّيلُ**

**إنَّ الَّذِي انْدَسَّ الأثِيمُ لِقَتْلِه قَدْ كان يَحْرُسُهُ لنَا جِبْرِيلُ**

**أيَمُوتُ سَعْدٌ قَبْل أنْ نَحْيَا بِهِ ؟ خَطْبٌ علَى أبْنَاءِ مِصْرَ جَلِيلُ**

ثم يتابع الشاعر سَيْرَهُ في تحذيره لسعد زغلول، مع ما عُرِفَ به من الفطنة في خداع الإنجليز وحِيَلِهِم التي لا يَجْهلها مَنْ ابْتُلِي وطنُه بالاستعمار، فيُكْثِر من استخدام بعض الأساليب الطلبية خاصة **(الاستفهام)**، كما رأينا في النموذج السابق، فيقول على وزن (بحر الكامل التام)[٢] :

**أيَمُوتُ سَعْدٌ قَبْل أنْ نَحْيَا بِهِ ؟ خَطْبٌ علَى أبْنَاءِ مِصْرَ جَلِيلُ**

وكذلك **(الأمر والنهي)**، وهذه الأساليب تصف جزءاً كبيراً من شعره في النيل بالخطابية؛ إذ إن " الجمل الطلبية تمتاز بالحركة وقوة التأثير، وهي من أجل ذلك تَكْثُر في الأسلوب الخطابي، كما تكثر في الشعر الذي ينزع هذه النزعة الخطابية التي تعتمد على الإثارة وحفز الهِمَّة "[٣]، وذلك راجع في المقام الأول إلى طبيعة

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١١٠ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١١٠ .

(٣) علم المعاني، د/ درويش الجندي، ص: ٦٨، ط: دار نهضة مصر .

حافظ في مخاطبة الجماهير، فكان ينتقى الأسلوبَ القَوِيَّ الجذاب، ولكنه يصل إلى أذهان وقلوب الجماهير بكل سهولة، ومن أجل هذا السبب " قَلَّ الإغراب في شعره قلةً ظاهرة؛ لكي تقع أفهامُ السامعين على معانيه في سهولة ويُسْر، فضلاً عن أنه كان يُحِسُّ في قرارة نفسه بسطحية معانيه وقرب غورها، فكان يحاول أن يَسُدَّ هذا النقص بالصياغة الجيدة واللفظ المنتقى" (١) .

فنراه يقول في خطابه لسعد زغلول، مُحَذِّراً إياه من الوعود والحيل الكاذبة والخداع الذي يجري في عروق هذا الاحتلال البغيض على وزن (بحر الكامل التام) (٢) :

لا تَقْرَبِ التَّامِيزَ واحْذَرْ وِرْدَهُ مَهْمَا بَدَا لكَ أَنَّهُ مَعْسُولُ

الكَيْدُ مَمْزُوجٌ بِأَصْفَى مَائِهِ والخَتْلُ فِيهِ مُذَوَّبٌ مَصْقُولُ

كَمْ وَارِدٍ يَا سَعْدُ قَبْلَكَ مَاءَهُ قَدْ عَادَ مِنْهُ وفِي الفُؤَادِ غَلِيلُ

وهكذا نراه قد تحدث بأسلوب أتي فيه بعبارات أشبه ما تكون قريبة إلى لغة الخطابة منها إلى لغة الشعر، إلا أنها إن دَلَّت على شئ فإنما تدل على أنه ملَكَ ناصية البيان في جذب قلوب السامعين؛ وذلك من خلال هذه العبارات الرنانة التي تخلب أسماع الحاضرين، وتُشَنِّف آذانهم، فكان حافظ "يحرص على أن يلقيها في المناسبات ، وكانت تقابل باستحسان الجماهير التي كان يانس بها، ويحتفى برضاها كل الاحتفاء" (٣) .

**ثالثاً: المعاني :**

مما لا شك فيه أنَّ المعاني لها أهميةٌ عميقةٌ ودقيقةٌ في النص الأدبي، فهي

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل، ص: ١٩٨.

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١١٠ .

(٣) حافظ ابراهيم شاعر النيل، ص: ١٠٣ .

" خواطرُ الإنسان وآراؤهُ وتجاربُه وأحوالُ نفسِه وعباراتُ عواطفه "[١]، فلها أهميةٌ عظيمةٌ لا تَقِلّ عن الألفاظ والأساليب، بل إن هناك علاقة قوية بين تلك العناصر، فلا غِنَى لِأحَدِهم عن الآخر، ولذلك يقول ابن رشيق القيرواني " اللفظ جِسْمٌ وروحُهُ المعنَى، وارتباطُه به كارتباط الروح بالجسم، يَضْعُفُ بِضَعْفِه ، ويَقْوَى بِقُوَّتِه .. " [٢].

ولذلك فإن الشاعر الموهوب هو الذي يختار من معانيه الجديد المُبْتَكَر، ويصوغها بعمقٍ ودِقَّة، لا يقف بهذه المعاني عند حَدٍّ معين، ولا ينتهي بها إلى غايةٍ محددة، بل يستمدها من كل ما يدور حوله في الحياة، ومن ثم كانت هناك بعض السمات والأسس والمقاييس الجمالية للأفكار والمعاني قد أبانَ عنها النقد الأدبي في القديم والحديث، ومنها :

- أن لا يُنَاقض الشاعر نفسه في التعبير عن المعنى الواحد، وهذا لا يتأتى له إلا إذا كان مُلِمَّاً بموضوعه وأبعاد تجربته، وبذلك " تتضح أمامه الرؤيةُ الكاشفةُ لجوانب العمل الشعري، فلا يعبر عن فكرةٍ ما ثم يأتي بعد قليلٍ بما يناقضها، ناسياً ما سبق وغافلاً عما تَقَدَّم " [٣] .
- ومن معايير الجمال في المعنى–أيضاً– أن الشاعر إذا أراد أن يبالغ في المعنى، فعليه " أن لا يخرج بذلك إلى حَدِّ الإغراق والإفراط والغُلُو، لأنها أمورٌ مذمومةٌ في الشعر، إذ إنَّ " الشعر تصويرٌ للحياة، وتفسيرٌ لظواهرها، والتصوير والتفسير يجب أنْ يقتربا من أحداث الحياة، وأن يُعْطِيَا لهذه الحياة فهماً مُعْتَدِلا لا زَيْغَ به ولا انحراف، فإذا غاب عن الشاعر هذا المعنى وُجِدَ الزَّيْفُ في الفكرة والعبارة، وهو ما يتنافى مع الشعر الخالد الذي يجب أن ينبع

(١) مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكري الجامع ، ص : ٣٦٤ .

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني ، ص : ٩١ ، الجزء : الأول .

(٣) ميزان النقد الأدبي ، د/ طه أبو كريشة ، ص : ٣٧ ، ٣٨ ، ط : المليجي ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م .

عن وجدانٍ صادقٍ وإحساسٍ أصيل " [١] .

إذا تم تطبيق ذلك فحينئذ يتميز هذا اللون من الشعر بوضوح أفكاره من غير إسفافٍ أو التواء، بحيث يمتزج فيه الوجدان الصادق بالفِكْرِ الواضح، فيضفى على المعاني– في الأعَمِّ الأغلب– عنصر الدِّقة إلى جانب تنسيق الخواطر واتِّسَاقِها وإحكامِ الروابط بين أجزائها، وهذا ما نجده عند شاعرنا/ حافظ إبراهيم في نظمه لشعر النيل .

فجاءت المعاني في شعر حافظ بوجه عام، قريبة الفهم، سريعة الإدراك، واضحة المغزى، بعيدة عن العمق والاستقصاء، " لا يحتاج القارئ في فهمها إلى إجهادِ ذهنٍ، أو إعمال خاطر في الوقوف على أبعادها ومناحيها وإدراك كُنْهِهَا، ومن ثم كان يشترك في فهمها عامة الشعب وخاصته، وكان يترجم عن كل المناسبات شعراً، يذيعه على الناس، فتستريح له وجداناتهم، وتطرب له، فلا بأس على "حافظ" والحال هذه إذا ساق لها من المعاني ما تسيغه دون جهد أو روية "[٢] .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن حافظ موفور الثقافة، متعدد المعارف، كثير الإطلاع، بل لعلَّ القارئ الفاحص لشعره قد اتضح له في شخصية حافظ سرعة مللـه وسئمه من الاطلاع الهادئ الذي يعين على المعنى العميق، والفكر الدقيق؛ وذلك لأنه " طُبِع على الحرية وعدم الالتزام بقيود البحث والدرس، فضلاً عن انحسار روافد ثقافته في الكتب الأدبية القديمة ككتاب (الأغاني ودواوين الشعراء القدامى)، كما أنه لم يُتْقِنْ لغة أجنبية تساعده على هضم ثقافة

(١) التيار الإسلامي في شعر محمد رجب البيومي ، ص : ٤٤٩ ، د/ عبير عبد الصادق بدوي ، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م ، بتصرف .

(٢) منتخبات من الأدب العربي الحديث (دراسة فنية)، د/ محروس منشاوي الجالي، ص: ٦٥، ٦٦، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، د– ت .

من الثقافات الأوربية في شعره كالإنجليزية أو الفرنسية؛ لتتيح له التأثر بهذه الثقافات في شعره، كما لم يُعرف عنه أنه قرأ بعض الفلسفات المختلفة، أو تأثر بها في شعره الذي خلا من كل معنى عميق، وفكر دقيق، و فلسفة قوية " [١].

وقد لاحظنا في شعر النيل عند حافظ هذه المعاني القريبة الفهم، السريعة الإدراك، الواضحة المغزى، وإن كان قد حاول الوصول إلى معان طريفة وجديدة، كما في قوله يخاطب اللورد (كرومر) عن ضيق صدر مصر الذي عبَّرَ عنها بالنيل؛ بسبب فزع أهلها يوم حادث دنشواي، واتساع صدر كرومر لسماع شكوى المُرَوَّعِين اتساعاً يَضِيق عنه النيل، مع ما عُرِف عن هذا الطاغية من قسوة القلب، وتَبَلُّدِ الحِسِّ، وفي ذلك معنى طريف فيه من السخرية والتهكم ما فيه، فيقول على وزن (بحر الكامل التام)[٢] :

**إنْ ضَاقَ صَدْرُ النيلِ عَمّا هَالَهُ  يَوْمَ الحَمَامِ فإنَّ صَدْرَكَ أرْحَبُ**

وفي سؤال حافظ كذلك للنيل عن كون الأهرام لا زالت مستقرة ثابتة، حتى مع رحيل هذا المحتل الغاصب معنى من المعاني الطريفة الجديدة، التي نظن أنَّ حافظ لم يُسْبَق إليها، ثم أتْبَعَ ذلك بأنه ما كان للنيل أن يرى الأهرام على حالها، كأن النيل ما تأثر برحيله، ولا جزع لفراقه، وما رأى في حِماه الأمن والعطاء، فضلاً عن أنه جعل من كرومر أحد الفراعين، وكلها أفكار ومعان تثير فضول القارئ، فيقول مخاطباً النيل على وزن (بحر الطويل) [٣] :

**فَلِمَ لا نَرَى الأهْرَامَ يا نِيلُ مُيَّدَا  وفرعونُ عنْ وَادِيكَ مُرْتَحِلٌ غدَا ؟**

**كأنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عليه ولَمْ تَكُنْ  تَرَى فِي حِمَى فِرْعَوْنَ أمْناً ولاجَدَا**

(١) مقدمة ديوان حافظ، ص: ٢٠، بتصرف .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٣ .

(٣) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٢٧ .

ومن هذه المعاني التي قد تبدو جديدة في تهنئة الشاعر للخديوي (عباس) بقدومه من الحج، حين جعل النيل حاسداً لزمزم، وقد مَرَّ الخديوي عباس على الجزيرة، فأخصب أرضَها، وأنْضَرَ أوْدِيَتَها، حين قال على وزن (بحر الطويل)[١] :

حَلَلْتَ بِأكْنَافِ الجزيرةِ عابِراً فَأنْضَـرْتَ وَادِيهَا وكُنْتَ لهَا سَمَا

وأشْرَفْتَ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ زَائِراً فبَاتَ عليكَ النِّيلُ يَحْسِدُ زَمْزَما

ومهما يكن من أمر، فقد ظهر جلياً أن المعنى الشعري عند شاعرنا/ حافظ إبراهيم من خلال نظمه لشعر النيل، جاء قريباً في فهمه، ظاهراً في مضمونه، بعيداً عن العمق، من الأمور التي بدا فيها حريصاً على ابتكار الجديد والطريف .

وقد وقف الباحث على بعض النماذج الشعرية الأخرى التي تناولت الحديث عن النيل عند شعراء آخرين غير حافظ إبراهيم؛ ليقف على بعض مواطن الإجادة أو الإخفاق في المعجم الشعري، فها هو الشاعر الفلسطيني/ صلاح الدين الصَّفدي الذي يرى الأمن والسكون والراحة والاطمئان في نظرته إلى النيل، يعيش بخياله الراقي وعاطفته المتوهجة تجربته في ظلال النيل، فيصف حاله إذا ضاقت به الدنيا، وأُغْلِقَتْ السُّبُلُ في وجهه، فإذا به يركن إلى أرض مصر، يعيش في أحضان نِيلِها، فيرى حينئذٍ متعة وجمالاً وسِعَةً في أرضها وقلوب أهلها، فيقول على وزن (بحر البسيط التام)[] :

رأيْتُ فِي أرْضِ مِصْرَ مُذْ حَلَلْتُ بِها عَجَائِباً ما رَآها النَّاسُ فِي جِيلِ

تَسْوَدُّ فِي عَيْنِيَ الدُّنْيَا فَلَمْ أرَهَا تَبْيَضُّ إلَّا إذا ما كُنْتُ فِي النِّيلِ

فمع أن الشاعر نجح في إضفاء بعض مظاهر الرِّقَّة والجمال على نِيل

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٥١ .

مصر، حين اختار بذوقه المُرْهَف ألفاظاً حنونةً رقيقة، إلا أن ألفاظه الشعرية قد تكون بسيطة رقيقة من روح قائلها، ولكنها مع ذلك مُغْرَقَةٌ في التقليد تتَّسِم بالتقريرية والمباشرة، فكانت فقيرة في معانيها ومضامينها، لا تأخذ الألباب، ولا تَمَسُّ صميم عواطف المتلقين ومشاعرهم وأحاسيسهم .

أما شاعرنا/ حافظ إبراهيم فقد تنوعت ألفاظه وأساليبه في معجمه الشعري، التي تدعو إلى التأمل في الحالة النفسية السيئة التي عاشها، من خلال نظرته المتعمقة في أسرار العالم النفسي والروحي، وهذه النظرة التي يكسوها الألم والعناء مشوبةٌ بالفلسفة التي يغلب عليها الوضوح الأسلوبي والخصوبة اللفظية التي تنبع منها المعاني الجيدة؛ ولذلك لم تضعف قُوَاه الأدبية، ولم تُصَبْ ملكتُهُ الشعريةُ بالجمود والجفاف بسبب الأحدث المحيطة به، بل ظلَّتْ روحُهُ الشاعرة تُحَلِّقُ في رحاب إبداعه .

## المبحث الثالث

## الصورة الفنية

تحتل الصورة الفنية مكاناً بارزاً في الحقل النقدي على اختلاف مذاهبه ومراحل تطوره؛ نظراً لأهميتها في العمل الأدبي وتأثيرها فيه، إذ إنَّ هذا المصطلح من المصطلحات حديثة الوجود على المستوى العالمي، فهو لا يَبعد كثيراً عن بدايات الربع الثاني من القرن العشرين، وأما وجوده في النقد العربي الحديث خاصة فهو يرجع إلى النصف الأخير من هذا القرن، وكانت بداياته على هيئة فصول أو مباحث في بعض كتب النقاد المحدثين، أو في مقالات نشرت في المجلات والدوريات، كما نجد عند الأستاذ/ أحمد الشايب، والدكتور/ محمد غنيمي هلال في مجلة (المجلة) .

ويُعَدّ الدكتور/ مصطفى ناصف في كتابه(الصورة الأدبية)–الذي ظهر عام ١٩٥٨م– أول ناقد عربي يَخُصُّ الصورة بكتاب مستقل، يقول الدكتور/ عبد الإله الصايغ عن هذا الكتاب:" لعل كتاب (الصورة الأدبية) الصادر سنة ١٩٥٨م أول كتاب عربي مُكَرَّس لدراسة الصورة الفنية برؤيةٍ تُزَاوِج بين التراث والمعاصرة "[(١)]، ومن هنا تنوعت الدارسات النقدية والأدبية التي تناولت الصورة بالتعريف والتنظير، والتي كان من أهمها أن الصورة الفنية فى الشعر هى" الشكل الفنى الذى تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياقٍ بيانيٍ خاص؛ ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة فى القصيدة، مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها فى الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس، وغيرها من وسائل التعبير الفني" [(٢)] .

(١) الصورة الفنية معياراً نقدياً، د/ عبد الإله الصايغ، ص: ١٣٢، ط: الأولى، مطبعة وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٧ م .

(٢) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر، د/ عبدالقادر القط، ص: ٤٣٥ .

وإذا كانت طبيعة هذا الموضوع الذي يتمثل في الآثار النفسية بين الرمزية والواقعية لشعر النيل عند شاعر النيل، تتسع للحقيقة وحديث العقل أكثر من حديث الخيال، فإن الشاعر حينما يغلب عليه الأسى والحزن، فإنه يستعين بالخيال في تصوير عواطفه الحزينة ونفسه المكلومة، كما أنه يعتمد في ذلك على الصورة الشعرية بأنواعها المختلفة (المفردة، والجزئية، والكلية، والمركبة)، وفي الصفحات التالية يقدم الباحث بعض الألوان الفنية للصورة الشعرية في شعر النيل والأثر النفسي لذلك على قلب الشاعر، ومن ذلك :

**أولاً : طبيعة الصورة :**

الصورة الشعرية في شعر عند حافظ إبراهيم، قد تكون مفردة، وقد تكون جزئية، وقد تكون مركبة، وقد تكون كلية مشتملة على مشهدٍ كليٍ يضم أجزاء متعددة من الصور الجزئية المساهمة فى بناء صورة كلية .

**١ – الصورة المفردة :**

عرض حافظ لصورة رائعة من صور النيل، مُبْدِياً من خلالها وفاءه وإخلاصه لهذا النهر العظيم، من خلال رسالة بعث بها إلى صديقه (أحمد بك بدر) في إنجلترا، يبين فيها أن النيل عنده مرآةٌ تلمع فوقها قطراتُ الندى، وتنعكس فيها نجومُ السماء وظِلُّ الغَمام، وهي صورة بديعة في حُسْنِها وجمالها، توضح صفاء ماء النيل وعذوبته، وانسياب مَوْجِهِ في حركةٍ هادئةٍ بفعل هبوب النسيم،حيث يذكر له ذلك موضحاً هذه الذِكرى الجميلة المُحَبَّبة إلى قلبه، فيقول على وزن (بحر الكامل المجزوء)[1] :

**فِيهَا صَحِبْتُكَ واصْطَفَيْـ ـتُك أيُّهَا الخِلُّ الحَمِيـــمُ**

**بالجَانِبِ الغَـرْبِـــيِّ فَوْ قَ النِّيلِ والدُّنْيَا نَعِيـــمُ**

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١٧٣، ١٧٤ .

أيَّامُ يَعْرِفُنَا السَّـــرُو رُ بِهَا وتُنْكِرُنَا الْهُمُـــومُ

والنِّيــلُ مِرْآةٌ تَنَفَّــ ــسَ فِي صَحِيفَتِهَا النَّسِيمُ

ثم يبعث الشاعر بصورة مفردة من خلال دعوته لأرباب الفكر والبيان أن يُسَخِّروا أقلامهم، وأن يوجهوا إبداعهم الشعري والأدبي في سبيل النيل الذي هو منارة عظيمة من منارات مصر وبلاد الشرق كلها فيقول على وزن (بحر الطويل)[١] :

فإنْ كُنْتَ قَوَّالاً كَرِيماً مَقَالُهُ فَقُلْ فِي سَبِيلِ النِّيلِ والشَّرْقِ أوْ دَعِ

**٢- الصورة الجزئية :**

كما اعتمد الشاعر/ حافظ إبراهيم في نظمه لشعر النيل على الصورة الجزئية التى تتكون من عدة أجزاء؛ وذلك مساهمة فى الكشف عن المعنى الذى يريد الشاعر توصيله إلى القارئ، وذلك من مثل هذه الصورة التي صوَّرَها حافظ لهذا الشعب الذي خرج منه الألم والصبر من جهة، والوُدّ والطيبة وحُبُّ الخير من جهة أخرى، وقد أحَسَّ حافظ بذلك؛ لأنه هو الذي ذاق مرارة اليُتْم وهو ابن عامين، وعاش حياة القلق والضجر في الوقت الذي اختلط فيه بعامة الشعب، وتَعَرَّف على أحوالهم وبُؤسهم، فقال مُعبراً عن بؤسه الذي هو صورة لبؤس الكثيرين من أبناء شعبه، فيقول على وزن (بحر الخفيف التام)[٢] :

ذُقْتُ طَعْمَ الأسَى وكابَدْتُ عَيْشاً دون شُرْبِي قَذَاهُ شُرْبُ الحِمَامِ

فتَقَلَّبْتُ فِي الشَّقَاءِ زماناً وتَقَلَّبْتُ فِي الخُطُوبِ الجِسَامِ

ومَشَى الهَمُّ ثَاقِباً فِي فؤادِي ومَشَى الحُزْنُ نَاحِراً فِي عِظَامِي

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١٣٠ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٢٨٨ .

**٣- الصورة المركبة :**

اعتمد الشاعر/ حافظ إبراهيم فى نظمه لشعره كذلك على الصور المركبة المتعددة الأجزاء التي تكشف عن صفات من يتحدث عنه، فقد كان للعامل النفسي أثره الواضح على الصورة الشعرية عند حافظ، فحينما يتحدث الشاعر عن النيل، فإنه يُبْرِز جانب النضال الوطني من قِبَلِ شعراء الوطنية معه، فقد ناضلوا من أجل تخليص الوطن من كيد المستعمر الغاشم، وكذلك من أجل أن ينهض المجتمع المصري من كبوة التخلف التي أصابته؛ ولذلك فقد رسم صورةً مُرَكَّبَةً رائعة لمصر مكونة من عدة خصائص عن طريق رمزه لها بالنيل، فهي رمزٌ للمجد، وعنوانٌ للعراقة والرُّقِي، وتاريخٌ من الأصالة والحضارة، فقال على وزن (بحر الكامل التام)[١] :

**لِلنِّيلِ مَجْدٌ فِي الزَّمَانِ مُؤَثَّلٌ  مِنْ عَهْدِ آمُونٍ وعَهْدِ فِتَاحِ**

**٤- الصورة الكلية :**

وردت الصورة الكلية بأجزائها المختلفة فى قصائد النيل عند حافظ، في مشاهدَ رائعةٍ تكشف لنا عن مشهد في غاية الذوق الأدبي والجمال الإنساني، حينما هَنَّأ الشاعر الخديوي (عباس الثاني) بعيد الأضحى عام ١٩٠٤م، وقد جعل الشاعر من مجرد نظرة الخديوي للنيل فيضاً زاخراً، وخيراً وفيراً، وعطاءً منهمراً، بل إن النيل حينما يراه لا يستقر على حاله، وإنما تتراقص أمواجه وجوانبه، وتهتز فرحاً بقدومه وبخيره الذي يَعُمُّ البلاد والعباد؛ حيث إنه لم يترك أرضاً إلا وسقاها سقاية عادلة، وأفاض بعموم خيره على واديه، يقول الشاعر مصوراً ذلك على وزن (بحر البسيط التام) [٢] :

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٠٠ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٢٩ .

نَظَرْتَ لِلنِّيلِ فاهْتَزَّتْ جَوَانِبُه وفَاضَ بالخَيْرِ فِي سَهْلٍ وَوِدْيَانِ

يَجْرِي علَى قَدَرٍ فِي كلِّ مُنْحَدَرِ لَمْ يُجِفّ أَرْضاً ولَمْ يَعْمَدْ لِطُغْيَانِ

ثم يستطرد الشاعر في حديثه عن النيل، فيرسم صورةً كليةً مُمَثَّلَة في هذا المشهد الباكي، وهي صورة خروج الأمة في مشهد الوداع والتشييع للزعيم/ سعد زغلول، مستعيناً في ذلك بعدة وسائل، منها: الاستعارة، والتشبيه، وأسلوب التشخيص، الذي أفاض عليه من حِسِّهِ وشعوره، حيث جعل من النيل شخصاً حيّاً يقف عاجزاً ومذهولاً من هول ما يرى، فقد استعان الشاعر بهذه الصورة الفنية الممثلة في" التشخيص وهو أرقى أنواع الخيال، وصُورَتُهُ إنسانيةٌ مِن أرقَى أنواع الصور، فهو يُجَسِّد المعنى، ويبعث الحياة في الصلب الجامد، ويُوجِد الرموزَ للمحسوسات، ويُجَسِّم الأفكار التي تتخايل، وتَقُومُ الحيويةُ فيه مقامَ البرهان العقلي "[(١)]؛ ولذلك فَهو يُشْرِك بعض مظاهر الكون في هذا الخَطْب الجَلَل، فيجعل السُّحُبَ تنهمر بفيضها مشاركة في البكاء، حتى يُغَطِّى ماؤُها الأخضرَ واليابسَ من الوادي ، يقول مصوراً ذلك على وزن (بحر الخفيف التام) [(٢)] :

خَرَجَتْ أمّةٌ تُشَيِّعُ نَعْشـــاً قَدْ حَوَى أُمَّةً وبَحْراً عُبَابَـا

حَمَلُوهُ علَى المَدَافِعِ لمـّـا أعْجَزَ الهَامَ حَمْلُهُ والرِّقَابَـا

حَالَ لَوْنُ الأصيلِ والدَّمْعُ يَجْرِي شَفَقَاً سَائِلاً وصُبْحاً مُذَابَـا

وَسَهَا النِّيلُ عَنْ سُرَاهُ ذُهُولاً حِينَ أَلْفَى الجُمُوعَ تَبْكِي انْتِحَابَا

ظَنَّ يَا سَعْدُ أنْ يَرَى مِهْرَجَاناً فَرَأى مَأْتَماً وحَشْداً عُجَـابَا

واسْتَهَلَّتْ سُحُبُ البُكَاءِ علَى الوَا دِي فَغَطَّتْ خَضْرَاءَهُ واليَبَابَا

(١) الصورة الأدبية تاريخ ونقد، د/ علي علي صبح، ص: ٢٦، ط: إحياء دار الكتب العربية، د–ت .

(٢) ديوان حافظ،ج: الثاني، ص: ٢٢٠ .

**ثانياً: وسائل تشكيل الصورة الفنية :**

تختلف الوسائل التشكيلية للصورة الفنية في العمل الشعري من شاعر إلى آخر، ومن عملٍ شعري إلى عملٍ آخر، فمن تقسيم في طبيعتها كما سبقت الإشارة إليه إلى تقسيمٍ آخر بياني يشتمل على أركان الصورة البيانية ( كالتشبيه، والاستعارة، والكناية) إلى غير ذلك من الاختلافات النقدية في العمل الشعري، ومن ذلك:

**١ – الصورة التشبيهية :**

شاع التشبيه في تراثنا الشعري، وتبوأ عرش الخيال في تراثنا النقدي، وذلك أن" التشبيه أكثر الأنماط الخيالية قرباً من حالة العقل البشري في الزمان والمكان اللذين يَرَيان الوضوح والبساطة أروع ما في الحياة "[(١)]، فقد تجَمَّعَتْ لطبيعة النيل بعضُ الصور التي امتزج أسلوب التشبيه فيها بعاطفة الشاعر، وانْتُزِعَتْ تارة من نظرة حسية، وتارة أخرى من نظرة معنوية .

ومن ذلك تلك الصورة المجتمعية التي ينعي فيها الشاعر واقع الأمة المصرية، والتي يتخذ من الحديث فيها عن النهر مجالاً يَعْرِض فيه لبعض الأمراض الاجتماعية، وما وصل إليه حال المجتمع المصري بسبب تخاذله عن رفعة شأنه، فيأتي الشاعر بأسلوب التشبيه؛ ليوضح لنا مدى ما وصل إليه أبناء وطنه من التكاسلِ وفَقْدِ الهِمَّة، مُبْرِزاً لهم أحوال الغربيين الذين ارتقوا ووصلوا إلى العُلا؛ بسبب إخلاص نياتهم، وعُلُوِّ هِمَّتِهِم، ولذلك تقدموا بشدة عزيمتهم وإصرارهم على الوصول إلى عنان السماء، في حين ظل أبناء الشرق على حالهم من النوم وعدم الاجتهاد في عملهم، فأصابتهم الانتكاسة وفقدوا أغلى وأعز ما يملكون، وقد استخدم الشاعر في تصوير حالهم أسلوب التشبيه، حين شبَّههم بماء النهر الراكد

(١) إبراهيم ناجي، د/ علي محمد الفقي، ص: ٢٧٧، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

الذي فَقَدَ عُذوبته، وضاعت أهمُّ سِماته وأبرزُ مميزاته ، فيقول معبِّراً عن ذلك على وزن (بحر الكامل التام) [١] :

والله مَا بَلَغَتْ بَنُو الغَرْبِ المُنَى ... إلا بِنِيـّاتِ هُنَاكَ صِحَاحِ

رَكِبُوا البِحَارَ وقَدْ تَجَمّدَ مَاؤُها ... والجَوّ بَيْنَ تَنَاوُحِ الأرْوَاحِ

يَلْقَى فَتِيَّهُمُ الزَّمَانَ بِهِمَّةٍ ... عَجَبٍ وَوَجْهٍ فِي الخُطُوبِ وَقَاحِ

وابْنُ الكِنَانَةِ فِي الكِنَانَةِ رَاكِدٌ ... يَرْنُو بِعَيْنِ غَيـْرِ ذَاتِ طِمَاحِ

أمْسَى كمَاءِ النّهْرِ ضَاعَ فُرَاتُهُ ... فِي البَحْرِ بَيْنَ أجَاجِهِ المُنْدَاحِ

فالتشبيه هنا يوضح الحالة التي وصل إليها المصريون بسبب الخمول وعدم السعي، ويعتمد على جزءٍ قوي من أجزاء التشبيه القائم على الصورة الحسية، المتمثلة في صورة الماء الراكد غير الجاري، والذي فَسَدَ بسبب عدم جريانه واختلاطِهِ بغيره، كما يرتكز على جزءٍ آخر من أجزاء الصورة التشبيهية الحسية، وهو التذوق أو الطعم، فيشبههم بماء النهر الذي ضاع فراته، وفقد أهم سماته ومميزاته وصفاته الخاصة به في العذوبة، فأضحى مالحاً لا طِيب فيه ولا استساغة لعناصره.

ولذا حينما أراد حافظ أن يتغنى بمصر، وعذوبة نيلها، وذكرياتها الجميلة، بعث برسالة إلى صديقه المغترب أحمد بك بدر، يشبه فيها النيل بالمرآة التي ظهرت عليها بقايا النسيم العليل، وقد كان الشاعر بارعاً في هذا التشبيه؛ لأنه أوضح عن صورة جميلة بديعة في حُسْنِها وتَألُّقِها للنيل، حين صَوَّرَه بِرِقَّةِ مائِهِ وصفائِه، وانسيابِ موجه في حركته مع هبوب النسيم، وهو بذلك يعكس ما في قلبه من حنين، حين تذكر أحبابه في عهدهم الذي انقضى ومضى، فينظم قائلاً

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٠٣، ١٠٤ .

على وزن (بحر الكامل المجزوء) [١] :

فِيهَا صَحِبْتُكَ واصْطَفَيْـ ـتُكَ أيَّهَا الخِلُّ الحَميـــمُ
بِالجَانِبِ الغَرْبِيِّ فَوْ قَ النِّيلِ والدُّنْيَا نَعيـــمُ
أيّام يَعْرِفُنَا السّرُو رُ بِهَا وتُنْكِرُنَا الهُمُـــومُ
والنِّيلُ مِرآةٌ تَنفَّـ ـسَ فِي صَحِيفَتِها النَّسيـــمُ

ثم يأتي بصورة رائعة ليس للخيال فيها مجالٌ كبير، وإن كانت تحتوي على أثرٍ كبيرٍ في قلب الشاعر؛ استطاع الشاعر من خلالها اقتناص ذكرى جميلة له، ومزجها بذكريات الماضي، وفيها ينعي عَهْدَ الصِّبا، ويتشوق لأيامه الماضية وهو في غربته ببلاد السودان، فيأتي بتشبيه مُمْتزجٍ بعاطفته، مُعَبِّرٍ عن مُرَادِه وأمنياته، إذ إنه كان يتمنى أنْ يَنْصِتَ لِشَكْوَاه صاحبُ الصَّدْرِ الحليمِ والقلبِ الرحيم، فيقول على وزن (بحر الوافر التام)[٢] :

سَلامُ الله يَا عَهْدَ التَّصَابِي عَلَيْكَ وفِتْيَـــةُ العَهْدِ القَديم
أحِنَّ لَهُمْ ودُونَهُم فَلاةٌ كأنَّ فَسيحَـها صَدْرَ الحليم

فهو يُشَبِّه الصحراء التي عَبَّرَ عنها بالفلاة التي تفصل بينه وبين أصحابه بصدر الحليم، وهذا ما يسمى بالتشبيه المقلوب عند البلاغيين؛ حيث إنه لمْ يُشَبِّه الفلاةَ أو الصحراء بشيءٍ واسعٍ مثلها، وإنما مَزَجَ تشبيهه بصدر الحليم، معتقداً في ذلك بأن صدر الحليم أكثر سِعَةً من الفلاة .

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١٧٣، ١٧٤ .
(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١٦٤ .

**٢ – الصورة الاستعارية :**

كانت الاستعارة في مفهوم النقد العربي القديم كما يرى ابن طباطبا، لا تَعْدُو أن تكون هفوة " من قبيل الخطأ اللغوي"(١)، ولكن على الرغم من ذلك، فقد رأى بعض النقاد على أن " الدراسات النقدية أجمعت في كل العصور على أنها –أي الاستهارة– جوهر الشعر ودعامته"(٢) .

أما أدباء العصر الحديث: فقد استقروا على أن " الاستعارة تكون أكثر شيوعاً لدى الرومانسيين الذين يتحَرَّر خيالهم، ولا يستسلم لقواعد العقل والمنطق"(٣) .

وقد حظيت الاستعارة بأهميةٍ بالغة؛ باعتبارها من أهم عوامل الإبداع عند الشاعر من ناحية، ومن ناحية أخرى باعتبارها أحد عوامل جذب المتلقي أثناء تذوقه للعمل الشعري، ومن يتبين أن الاستعارة لها أهمية مزدوجة، يبدأ طرف خيطها من المُبْدِع الذي يراها أفضل وسائل نقل " الانفعالات العاطفية الدقيقة الغامضة "(٤)، ثم ينتهي الخيط إلى المتلقي الذي يساهم باستنتاجاته الخاصة به على ما يتلقاه حتى يُوَلِّد من الاستعارة " أفكاراً ومشاعر عميقة غامضة بالدلالات المتشابكة، والمعاني المتباينة المتداخلة "(٥) .

وللشاعر/ حافظ إبراهيم استعارات جيدة، تَنْفَذُ بِسُهُولةٍ إلى قلبِ المتلقي،

(١) عيار الشعر، محمد أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق: عباس عبدالساتر، نعيم زرزور، ص: ١٠٣، ط: دار الكتب العلمية ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م .

(٢) الصورة والبناء الشعري، د/ محمد حسن عبدالله، ص: ٢٠، ط: دار المعارف ١٩٨١م .

(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د/ جابر عصفور، ص: ٢١٧، ٢١٨، ط: دار المعارف، بتصرف .

(٤) النقد التحليلي، محمد محمد عناني، ص: ٤٩، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د–ت .

(٥) النقد التحليلي، محمد محمد عناني، ص: ٥٠ .

ويُتَوِّجها الابتكار والإبداع الذي يَعتمد على اختراعِ الصور وتَخَيُّلِها عن طريق التشبيه المتناسي، وعن طريق العلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي، مما يُوقِظُ المشاعر، ويَشُدُّ الانتباه، ويُجَرِّدُ الخواطر، كما في استعارة (المُرْفِين) لِخداع السياسة، فقد شَبَّه خِدَاعَ السِّيَاسِيين بهذا المُخَدِّرِ المعروف، حيث يقول مخاطباً النيل، ومبيناً له انتهاء عَهْدِ الغفلة، وانقضاء زمن التنويم والخداع على وزن (بحر الطويل) :

**مَضَى زَمَنُ التَّنْوِيمِ يَا نِيلُ وانْقَضَى فَفِي مِصْرَ أَيْقَاظٌ علَى مِصْرَ تَسْهَرُ**

**وقَدْ كَانَ مُرْفِينُ الدَّهَاء مُخَــدَّرا فأَصْبَــحَ فِي أَعْصَابِنَا يَتَخَدَّرُ**

والصورة الاستعارية هنا –على الرغم من جديتها– إلا أنها تَتَّسِمُ بشيءٍ من الدُّعَابةِ والطرافة، حيث جعلت السامع ينتقل من شعورٍ نفسي، غَلَّفَ قلبَ الشاعر تجاه المكر والخداع والأفاعيل البغيضة من الاحتلال الإنجليزي إلى صورة أخرى، وهي صورة هذا المُخَدِّر المعروف، هذه الصورة الاستعارية تخبر عن أمنيةٍ خفيةٍ يتمناها الشاعر، وهي اليقظة التي يريد أن يرى مصر عليها، كما أنها تُوحِي بالتحول والانتقال من حالٍ إلى حال، من حال المخدوع المغلوب على أمره، إلى حال اليَقِظ الواعي لما يُحَاكُ له ويَدُورُ حوله .

كما يكشف الشاعر عن سِرِّ لوعته وسرعةِ تأثره، من خلال صورة أخرى تَتَّسِمُ بالصدق، وحرارة الوجدان، وتُعَبِّر عن عاطفة الألم النفسي والفجيعة والضيق، فمَا أنْ يتذكر الشاعر ما نزل بمصر حتى يرجع ذلك عليه بالبكاء، فتجود به عيناه لؤلؤاً رطبا، تشبيهاً لدموع عينيه بهذا اللؤلؤ، والاستعارة هنا ترتكز على الجانب الحِسِّيّ، وجمالُها نابعٌ من انتقاله بالنفس من جانب التَّذَكُّرِ المعنوي حيث قال: (فقد غدَتْ مِصْرُ في حالٍ إذا ذُكِرَتْ ...) إلى حال البكاء بصورته الحِسِّيَّة حيث قال: (جادَتْ جُفُوني لها باللُّؤْلُؤِ الرَّطِبِ)، وكان الأجدر بحافظ أن يجعل هذه

الدموع ناراً حامية؛ لأنها مُنبعثة من نَفْسٍ ساخطةٍ ناقمة، وعاطفةٍ حارةٍ ملتهبة، وذلك حيث يقول على وزن (بحر البسيط التام) [١] :

مَتَى أَرَى النِّيلَ لا تَحْلُو مَوَارِدُهُ لِغَيْرِ مُرْتَهِبٍ لله مُرْتَقِبِ ؟

فَقَدْ غَدَتْ مِصْرُ فِي حَالٍ إذا ذُكِرَتْ جَادَتْ جُفُونِي لهَا بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطِبِ

كَأَنَّنِي عِنْد ذِكْرِي مَا أَلَمَّ بِهَا قَرْمٌ تَرَدَّدَ بَيْنَ المَوْتِ والهَرَبِ

**٣- استخدام الكناية :**

تكتسب الكناية مكانتها بين أقرانها بفضل تفوق الإيحاء والتلميح على المباشرة والتصريح في العمل الأدبي، إذ إنَّ " للإيحاء فضل لا يُنْكَر على التصريح"[٢]، وذلك بفضل ما يُعْطِيه التلميح من مجال واسع للمتلقي لإعمال ذهنه على التصريح في تأمل الصورة الشعرية، فهي–أي الكناية– لونٌ بديعٌ من ألوان الخيال الخصبة، يُضْفِي على الأسلوب روعةً وجمالاً وافتناناً عن طريق التلميح لا التصريح، " وجمالُها يَنْبع من العُدُول عن التصريح إلى التلويح، ومن الكشف إلى التعريض، ومن الإفصاح عن المعنى إلى التعبير بلازِمِهِ أو صِفَتِهِ اللاصقة، ومن كونها تُعطي الحقيقة مصحوبة بدليلها فيكون أقوى وآكَدْ لها "[٣].

ومن خلال إمعان النظر للصورة الفنية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم، نجد أن كثيراً من الكنايات جاءت متنوعة، فنراه يبرز لنا مشاهد من ظلم الاحتلال، واعتداده بقوته، وبسط نفوذه، وفرض سيطرته، ففي قوله: (قد مَلَكْتُمْ فَمَ السَّبِيلِ علينا) كناية عن إحكام قبضتهم، والتحكم في مصير الأمة، وكذلك قوله

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١١٨ .

(٢) النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ص: ٤٥١ .

(٣) شاعر يرثي نفسه، د/محمد عبدالمنعم محمد عبدالكريم(العربي)، ص: ١٢٤، ط: الأمانة ١٤٠٨هـ–١٩٨٧م .

(وفَتَحْتُمْ لِكُلِّ شَعْوَاء بابا) كناية أخرى عن أخذ المصريين بالقوة وإيثارها على كل معاملة سواها، ففي هذا البيت يَظْهَر صُمُودُ الأمة، في الوقت الذي استنفذ الأعداء لكل وسائل القهر والظلم والبطش، فيطالعنا بهذه الصور المعبرة عن ذلك قائلاً على وزن (بحر الخفيف التام) (١) :

قَدْ مَلَكْتُمْ فَمَ السّبِيلِ عَلَيْنَـا وفَتَحْتُمْ لِكُلِّ شَعْوَاءَ بَابَـا

وأتَيْتُمْ بِالحَائِمَاتِ تَرَامَى تَحْمِلُ المَوْتَ جَاثِماً والخَرَابَا

وكذلك أسلوب الكناية في قوله:(غَطَّتْ خَضْرَاءَه واليَبَابا) كناية عن عُمُومِ الفيضِ وشُمُولِه، حينما جعل الشاعر مظاهرَ الكون مشارِكةً في الجزع والبكاء والأنين؛ بسبب موت الزعيم/ سعد زغلول، ومن ذلك تصويره لانهمار السحب في فيضها وبكائها حتى غَطَّى ماؤُها الأخضر واليابس، فقال مصوراً ذلك على وزن (بحر الخفيف التام)[٢] :

واسْتَهَلَّتْ سُحُبُ البَكَّاءِ علَى الوَا دِي فَغَطَّتْ خَضْرَاءَهُ واليَبَابَا

ومن المعاني التي ساقها حافظ إبراهيم في شعره لنيل مصر، والتي كان للكناية فيها دورٌ كبير، دعْوَتُهُ إلى العناية بنهر النيل والالتفاف حوله، فلقد قال: (وحُوطُوا نِيلَكُمْ) كناية واضحة عن دعوته إلى حماية مصر، والعناية بها، والدفاع عنها، وتكمن روعةُ الكنايةِ وجمالُها هنا في استنباطها من قوله( وحُوطُوا نِيلَكُم) كشأن مَنْ يُدافع عن نفسه، ويَذُودُ عن شيءٍ يُحِبُّه، فيَحُوطُه ويلتف حوله ويحميه؛، حتى لا يصل إليه أذى أو مكروه، كما أفاض الشاعر علينا بكناية رائعة في قوله:(فلَكَمْ أفاضَ عليكم وتَدَفَّقَا)؛ لكي يبين للمصريين عظمة مصر، ويُذَكِّر

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٢٣ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٢٠ .

بأفضالها على الأمة جمعاء، كما في قوله على وزن (بحر الكامل التام) [١] :

فتَدَفَّقُوا حُجَجاً وحُوطُوا نِيلَكُمْ فَلَكَمْ أفَاضَ علَيْكُمْ وتَدَفَّقَا

وفي الحقيقة حينما نود أن نعقد موازنة بين حافظ وغيره من الشعراء حول الصورة الفنية في شعر النيل، نجد أن حافظ إبراهيم قد استعان بالخيال في صورته الفنية لشعر النيل، لكنها وإن كانت صوراً جميلة إلا أنها كانت قليلة، فلَمْ يكن ذا خيالٍ خَصْبٍ قادرٍ على الابتكار والجِدَّة، فكان خياله قاصراً عن أن يُحَلِّق في سماء الإبداع الفني ليبعث بصوره الرائعة؛ لأنه " كان قريب الغَوْر، لا يضرب في سماوات الخيال بسهمٍ بعيد الرَّمية، ولا يُحَلِّق إلا بأجنحةٍ متكسرة "[٢]، وهذا يُنْبِئ عن أن الخيال عند حافظ إبراهيم كان خيالاً جزئياً محدوداً، فلم يتمكن من تأليف صور شعرية يُحَلِّق فيها بقارِئِهِ في أجواء خياليةٍ رَحْبِة .

أما إذا نظرنا إلى الشاعر/ أحمد شوقي، الذي نشأ مثل حافظ في البيئة المصرية، وشرب من نيلها، وتعلق بأرضها وأهلها، فقد كان خياله ثَرِيَّاً زاهِياً قويا، إلا أن السبب في قوة الصور الخيالية عند شوقي وضعفها عند حافظ، أنَّ هناك بعض الفوارق بين كل من الشاعرين، ومنها –على سبيل المثال لا الحصر– (حياة حافظ إبراهيم البائسة التي نشأ فيها والحرمان الذي عاناه، وضعف ثقافته الغربية، وقِلَّة رحلاته خارج الأراضي المصرية إلا نادراً كسفره إلى السودان)، أما في المقابل إذا أمعنا النظر في شعر شوقي لنيل مصر، سنجد أن خياله في شعره كان خصباً ثَرِيًّا، فقد كان للصورة في شعره جلالُها وسِحْرُها الأخاذ الذي يُمَثِّل عبقريته الفنية في نَسْج شعره وصياغته، وهذا يرجع إلى تمكين المعنى في نفسه

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٤١ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم، أ/ أحمد محفوظ، ص: ١٨٥ .

وتأثيره في مشاعر الآخرين .

فها هو يصور مشهداً مهيباً ومهرجاناً كبيراً هَزَّ الدنيا بأجمعها، احتشد فيه جموع القوم، واختال فيه المشرق العربي، وتباهى فيه فرعون بهذه الجموع الحاشدة بمناسبة زفاف عروس النيل إليه، فإذا بِبَنات فرعون يخرجن وقد رَكِبْنَ الزَّوارق النِّيلِيَّة في موكبٍ مهيبٍ للفرح والسرور، ووقفت السفن في النيل مُتَرَقِّبةً لساعة إلقاء عروس النيل بنفسها، وهي فَرِحةٌ راضيةٌ متشوِّقَةٌ متلهِّفةٌ لهذه اللحظة، لأنه الملك الذي تحرص على رضاه والقُرْبِ منه، مُضَحِّيَةً في ذلك بحيائها وحياتها، وقد وقف الشاعر/ شوقي في ذلك على أدق التفاصيل والخفايا، وأعمق الخطرات النفسية، فقال مصوراً ذلك على وزن (بحر الكامل التام)[1] :

| | |
|---|---|
| فِي مِهْرَجانٍ هَزَّت الدُّنْيَا بِهِ | أعْطَافَها واخْتَالَ فِيهِ المَشْرِقُ |
| فِرْعَوْنُ تحت لِوَائِهِ وبَنَاتِهِ | يَجْرِي بِهِنَّ على السَّفِينِ الزَّوْرَقُ |
| حَتَّى إذا بَلَغَتْ مَوَكِبَها المَدَى | وجَرَى لِغَايَتِهِ القَضَاءُ الأسْبَقُ |
| وكَسَا سَمَاءَ المِهْرَجانِ جَلالَةً | سَيْفُ المَنِيَّةِ وَهْوَ صَلْتٌ يَبْرُقُ |
| وتَلَفَّتَتْ فِي اليَمِّ كُلُّ سَفِينَةٍ | وانثالَ بالوادِي الجُمُوعُ وحَدَّقُوا |
| ألْقَتْ إليْكَ بنَفْسِها ونَفِيسِها | وأتَتْكَ شَيِّقَةً حَوَاهَا شَيِّقُ |
| خَلَعَتْ عَلَيْكَ حَيَاءَها وحَيَاتَها | أأعَزُّ مِنْ هَذَيْنِ شَيْءٌ يُنْفَقُ |

فقد رَسَمَ شوقي مشهداً كلياً مكوناً من عدة مشاهد جزئية، فأعطاف الدنيا تهتز، وفي تعبيره هذا استعارة مكنية، حيث شَبَّه الدنيا أنها امرأةٌ تَهُزُّ أعطافها، فحذف المشبه به ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو هَزّ الأعطاف، إلى غير ذلك من المشاهد الجزئية كالمشرق يختال فرحاً، والمواكب تبلغ المدى، والقضاء يجري

(١) الشوقيات، المجلد الأول، ج: الثاني، ص: ٦٩، ٧٠ .

لغايته، والجلال يكسُو سماء المهرجان، وسيف المنية صَلْتٌ يَبْرُق، مما يدل على أنه كان رسَّاماً ماهراً، ووصَّافاً بارعاً، وقد أبان ذلك عن سعة أُفُقِه، وصِدْقِ إحساسه، واتساع خيالِهِ، وقدرته على تنويع الصور ورسمها في أبهى صورة .

## المبحث الرابع

## الموسيقى الشعرية

تُعَدُّ الموسيقى من أهم عناصر الشعر العربي؛ فبِهَا يتميز الشعر عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى، إذ إن أهمية الموسيقى تكمن في كونها من العناصر التي لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للجانب الشعري، وهذا الجانب الشعري يعمل على إثارة الشعور، وتحريك الوجدان، والإحساس بجمال النغم الموسيقي الذي يعتمد على اللغة اعتماداً كاملاً، فباللغة يستخرج الشاعر ما تعجز دلالة الألفاظ عن استخراجه من النفس البشرية، كاللون العاطفي للفكرة التي يُعبر عنها الشاعر، وكذلك المعنى الذي توحي به هذه الفكرة، فهي–أي الموسيقى الشعرية– كما يقول الدكتور/ محمد مندور: " إحدى الوسائل المُرْهفة التي تملكها اللغة؛ للتعبير عن ظلال المعاني وألوانها، بالإضافة إلى دلالة الألفاظ والتراكيب اللغوية "[١] .

وقد أرجع بعض الدارسين تمَسُّك الشعراء بالوزن والقافية إلى أنَّ " شِعْرَنا العربِيَّ يكاد يكون موقوفاً على إطراب الأذن، فتلاوتُه لا تجمل إلا صائتة، وهذا الرنين الموسيقي هو الذي حَتَّمَ التزام القصيدة بالعروض الواحد والدَّرْبِ الواحد والقافية الواحدة " [٢] .

ومن هنا يتضح لنا مدى إعجاب العرب –بصفةٍ عامة– بالشعر العربي، فهو يحتوي على نوعين من الموسيقى وهما:(موسيقى خارجية) تتمثل فى الأوزان والبحور العروضية إلى جانب القافية التى لها أثرٌ كبيرٌ في المتلقي،(وموسيقى داخلية) تتمثل فى التجانس والتآلف بين الكلمات واختيار الألفاظ الموحية؛ لتتبعث الموسيقى الزاخرة بالنغمات المتعددة ذات الأحاسيس المختلفة، ومما لا شك فيه أن

(١) الأدب وفنونه، د/ محمد مندور، ص: ٢٩، ط: مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٦١م .

(٢) عضوية الموسيقى في النص الشعري، د/ عبدالفتاح صالح، ص:٤١، ط: دار المنار، الأردن ١٤٠٥ هـ– ١٩٨٥م .

مصطلح الموسيقى الداخلية لمْ يُعْرَفْ عند أصحاب البلاغة القدماء في تناولهم للشعر العربي، إلا أنهم اهتموا بنغماتها المتعددة في البلاغة، فنجد في علم البديع تم إفراد صفحاتٍ متعددةٍ لنغماتها شرحاً وحُكْماً .

ومن الظواهر الفنية الواضحة التي تم استنتاجها من الآثار النفسية الواقعة على قلب الشاعر عند نظمه لشعر النيل: تلك الموسيقى التي تنساب في ثنايا شِعْرِه، ويعتمد فيها على جهده في اختيار الألفاظ والأساليب التي تفَوَّقَ فيها على ابتكار المعاني، وقد " استعان في ذلك بموسيقى اللفظ، وموسيقى الأسلوب، وموسيقى الأوزان والقوافي، إذ إن مبعث هذه الموسيقى ليس هو الإحساس الفطري الذي يُؤَلِّف بين الأنغام العذبة ويتذوقها فحسب، أو الذي يؤلف بين الألفاظ ويُنَسِّق الصور ويوائم بينها، حتى تؤلف لحناً رائعاً تطرب له الأسماع، وتهتز منه العواطف" [(١)]، فالموسيقى الشعرية إذن هي " إيقاع متسلسل، ونبراتٌ متحركةٌ وساكنة، تجري على فترات خاصة، وينشأ هذا الإيقاع عن انسجامٍ وتوافق"[(٢)] .

من خلال هذا العرض يتبين أن الموسيقى تتألَّف من نوعين، (موسيقى خارجية) تتمثل في الأوزان والقوافي، و(موسيقى داخلية) تتمثل في تناسق الألفاظ وانسجامها مع بعضها البعض، وقد عزف الشاعر على أوتار هذين النوعين، فتنوعت نغماتهما، وعند دراستنا للأنماط الموسيقية المستخدمة عند شاعر النيل/ حافظ إبراهيم، نجد أنه نَوَّع في البحور الشعرية بحسب الموضوعات التي يعالجها في شعره، فاختار لها ما يناسبها من الأوزان، وجعلها تتلائم مع انفعالاته وحالاته النفسية .

---

(١) ينظر: منتخبات من الأدب العربي الحديث(دراسة فنية)، د/ محروس منشاوي الجالي، ص: ١٠٣ .

(٢) الأصول الفنية للأدب، عبدالحميد حسن، ص: ٤٤، ط: الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م، بتصرف يسير .

**أولاً : الموسيقى الخارجية :**

تتألَّف الموسيقى الخارجية من قسمين أساسيين، وهما: (الوزن، والقافية) .

**١ – موسيقى الوزن:**

إن المتأمل الفاحص لشعر النيل عند حافظ إبراهيم، يجد أن الشاعر قد نَوَّع في البحور الشعرية عند نظمه لقصائده، ولكن مما يُلاحَظ في ذلك أنَّ هناك بحوراً شعريةً أكثر من النظم عليها، فأصبحت هذه البحور غالبةً عنده في شعره، كما لوحظ عنده الإلمام بكل مُشْتَمَلاتها كالتزامه بالأوزان التقليدية والقوالب الموسيقية المعروفة للبحور العروضية، وحرصه فى استخدامه لهذه البحور على إحداث مُوَاءمةٍ ومُجانسةٍ ومُلاءمةٍ بين أجواء قصائده على هذه البحور والغاية منها، ومن هنا يتضح أنه استخدم البحور العروضية ذات الإيقاع والنَّغَمِ الطويل والانسيابية الهادئة أو الثائرة، فنظم على أوزان هذه البحور (الطويل، والبسيط، والكامل، والخفيف، والرمل، والوافر)، وكانت هناك أوزان وبحور بارزة عنده في النظم عليها لشعر النيل .

حيث جاء النظم عنده –على حد اطلاع الباحث واستشهاداته لشعره– على بحور معينة، ومنها بحر (الطويل) الذي تم النظم على أوزانه فيه ما يقرب من ست قصائد، ونظم على بحر (البسيط) حوالي أربع قصائد، وعلى بحر (الخفيف) حوالي ست قصائد، في حين نظم على وزن بحر (الكامل) أربع عشرة قصيدة، وجاء النظم على بحر (الوافر) هنا في أكثر من قصيدة أيضا، كما نظم كذلك على أوزان (بحر الرَّمَل التام)، فكان بحر الكامل هو أكثر البحور دوراناً في شعر النيل عنده؛ والسبب في ذلك: لِمَا فى هذه البحور العروضية من رَحَابةٍ واتساعٍ فى أوزانها وشمولٍ فى تفاعيلها، هذا الاتساع وهذا الشمول وهذه الرحابة والانسيابية كل ذلك يساعد على احتواءِ تجارِبِه وأفكارِه المتعددة .

وقد قام الباحث فى هذه الدراسة بعمل إحصائية تقريبية تُوَضِّح البحورَ التى

نظم عليها حافظ إبراهيم شعره في النيل، والتي أبانت عن حالته النفسية، وكان لها صداها الواسع على شعره حين صَبَّه كالسَّوْط اللاذِع على أعدائه، ومن هذه الإحصائية يتضح لنا نوعية البحور التى كان يميل إلى استخدامها والاعتماد عليها، كما يتضح لنا –أيضاً– أيُّ البحورِ شيوعاً عنده، وأيُّها كان أقل، وأيها كان مهملاً، وهذه الإحصائية تضَمَّنَتْ القصائدَ الشعرية التي تمَّ نظْمُها لنهر النيل بين الرمزية والواقعية، والتى تمَّ جَمْعُها من بعض أجزاء ديوانه الشعري، وكذلك بعض البحور العروضية كـ (بحر المتقارب التام) الذي نظم الشعراء نماذجهم الشعرية في نهر النيل عليه وعلى غيره من البحور الأخرى، وتم إدراج هؤلاء الشعراء لعقد شيءٍ من الموازنة بينهم وبين حافظ في تناولهم لقضية النيل، وفيما يلى بيان بهذه الإحصائية :

| البحر | التام | المجزوء | المشطور | المنهوك |
|---|---|---|---|---|
| الطويل | ٦ | – | – | – |
| البسيط | ٤ | – | – | – |
| الكامل | ١٤ | ٣ | – | – |
| الخفيف | ٦ | – | – | – |
| الوافر | ٤ | – | – | – |
| الرَّمَل | ٣ | – | – | – |
| المتقارب | ١ | – | – | – |

وبعد النظر في هذه الإحصائية لشعر النيل عند حافظ إبراهيم بين الرمزية والواقعية، تَبَيَّنَ أنَّ الشاعر قد نظم على بعض البحور الخليلية، وإن كان هذا النظم الموسيقي عنده قد تفاوت بين الكثرة والقلة، كما اتضح لنا أنه استخدم بعض هذه البحور بكثرة كبحر الكامل، واستخدم بعضها بقلة وندرة ولكن في أغراض

أخرى غير شعره في النيل، وأهمل بعض البحور الأخرى ولم يستخدمها أصلاً، ولم ينظم عليها مطلقاً، وهى بحور (المديد، ومخلع البسيط، والمضارع، والمقتضب، والمجتث) .

وعلى ذلك فنستطيع أن نستنتج من خلال ما سبق أن الموسيقى التي غلبت على شعر النيل عند حافظ، هي موسيقى البحور التامة، والأوزان الطويلة، وأنه استخدم بحراً من أكثر البحور استعمالاً في العصر الحديث، وهو بحر (الكامل)، وهو ثالث البحور الشعرية شيوعاً بعد (الطويل، والبسيط)، وله –أي الكامل التام– عروضتان(صحيحة، وحذَّاء)، عروضه الأولى الصحيحة معها ثلاثة أضرب(صحيح، ومقطوع، وأحَذّ مضمر)، أما عروضه الثانية الحَذَّاء معها ضربان (أحَذّ، وأحَذّ مضمر)، وأوزانه هي :

**متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن**

وجاء استخدامه لـ (مجزوء الكامل) في مواضع أخرى، ولكن بصورةٍ أقل من نظمه على (تام الكامل)؛ وذلك لأنه بحر يستقطب المعاني الممتدة المتنوعة والمشاعر الفياضة المتدفقة، وبحر(الكامل المجزوء) له عروضه واحدة (صحيحة)، ومعها أربعة أضرب: (صحيح، ومُرَفَّل، ومُذَيَّل، ومقطوع)[1]، وقد علَّلَ الخليل بن أحمد الفراهيدي لِسِرِّ تسميته بالكامل بقوله " لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر، إذ هو يتكون من متفاعلن ست مرات، ويدخله كثير من الزحاف والعلل، فمتفاعلن فيه تُحَوَّل إلى مستفعلن، أو متفا، أو متفاعلان، أو متفاعلاتن "[2] .

(١) الترفيل: هو زيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع، فتصير تفعيلة البحر (متفاعلاتن)، أما التذييل: فهو زيادة حرف ساكن على ما آخره وتد مجموع، فتصير التفعيلة (متفاعلان)، وأما القطع: فهو حذف آخر الوتد المجموع وإسكان ما قبله، فتصير التفعيلة (متفاعلْ) .

(٢) ميزان الذهب في صناعة شعر العرب أ/ السيد احمدالهاشمي ص ٥٤ المكتبة التجارية د/ ت.

وقد كثر هذا البحر في العصر الحديث في مقابلة بحر (الطويل) عند القدماء، يقول في ذلك الدكتور/ إبراهيم أنيس: " على أن بحر الطويل فيما مضى مِن قَبْل عند الجاهليين أكثر البحور دوراناً في شعرهم، وكان يحتل الصدارة في قصائدهم، إلا أنه في العصر الحديث بَدَا اتجاه الشعراء نحو بحر الكامل"[١]، وهذا البحر (الطويل) له عروض واحدة مقبوضة، والقبض: هو حذف الخامس الساكن، وأضربه ثلاثة ( صحيح، مقبوض، محذوف)[٢]، وأوزانه أو تفاعيله هي :

**فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن**

والسبب في ذلك: لِمَا في أوزان هذا البحور من اتساعٍ وشمولٍ فى تفاعيلها، وذلك أدْعَى أن يساعد على احتواءِ تجارِبِه وأفكارِه المتعددة .

كما استعان الشاعر ببحر (الخفيف) وهو كما يقول عنه العروضيون: بحرٌ" إذا جاد من نظمه رأيته سهلاً مُمْتِعا، لِقُرْب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور، وليس في جميع بحور الشعر العربي بحر نظيره يصلح للتصرف بجميع المعاني" [٣]، وهو بحر سداسي التفاعيل، ثلاث تفعيلات في كل شطر، وله عروضتان (صحيحة، ومحذوفة)، العروض الأولى(الصحيحة) معها ضربان(صحيح، ومحذوف)، أما العروض الثانية: فمعها ضربٌ واحد مثلها(محذوف)، وأجزاؤه هي :

**فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن**

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المعاني والأفكار التي سيطرت على حافظ في شعر النيل، جاءت متناسبة مع تلك الأوزان التي استعان بها، ففي الثورة على

(١) موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس، ص: ٢٠٨، ط: السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨م .
(٢) القبض: هو حذف الخامس الساكن، وأما الحذف: فهو حذف السبب الخفيف من آخر التفعيلة .
(٣) موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس، ص: ٢٣٢.

الواقع، واستنهاض الهمم، ومواجهة الاحتلال، ونقد العيوب، استخدم (بحر الكامل)؛ لأن هذه الموضوعات وما ينشأ عنها من مشاعر متدفقة، وخواطر خفية، وعواطف مكبوتة، يناسبها هذا البحر المُتَّسِع الفياض الذي تردد بين الجزالة والرصانة في مواجهة المحتل، كما في قوله يخاطب عميد الاحتلال على وزن (بحر الكامل التام) [١] :

إنْ ضَاقَ صَدْرُ النِّيلِ عَمّا هَالَهُ  يَوْمَ الحَمَامِ فإنَّ صَدْرَكَ أرْحَبُ

وقوله في استنهاض الهِمَم على وزن (بحر الكامل التام) [٢] :

عَارٌ علَى ابْنِ النِّيلِ سَبّاقِ الوَرَى  مَهْمَا تَقَلَّبَ دَهْرُهُ أنْ يُسْبَقَا

وقوله يخاطب سعدا بعد عودته على وزن (بحر الكامل التام)[٣] :

هَذا زَعِيمُ النِّيلِ حَلَّ عَرِينُهُ  بَعْدَ الغِيَابِ فيَا وفُودُ تَدَفَّقِي

كما جاء بحر (الطويل) أيضاً متناسباً مع كثير من المعاني التي تطَرَّق إليها الشاعر، وسُمِي بالطويل: لكثرة حروفه التي تصل إلى ثمانية وأربعين حرفاًعند التصريع، وقيل سُمِّيَ بالطويل: لأنه لا يأتي مجزوءاً، أو مشطوراً، أو منهوكا، فهو مكون من تفعيلة خماسية (فعولن) والأخرى سباعية (مفاعيلن)، ولذلك نجد الشاعر في رثائه لمصطفى كامل قد استعان بـ(بحر الطويل) في قوله [٤] :

فيَا نِيلُ إنْ لَمْ تَجْرِ بَعْد وفاتِهِ  دَماً أحْمَراً لا كُنْتَ يَا نِيلُ جَارِيَا

كذلك كان للشاعر باعٌ في نَظْمِ بعض أشعاره في نهر النيل على

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٣ .
(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٦٠ .
(٣) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١١٩ .
(٤) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٥١ .

وزن بحر (الخيف التام)؛ وذلك لمناسبته لعاطفة السَّأَم والضيق التي أصابته، حيث قال [١] :

قَدْ مَلَكْتُمْ فَمَ السَّبِيلِ عَلَيْنَا وفَتَحْتُمْ لِكُلِّ شَعْوَاءَ بَابا

وأتَيْتُمْ بالحَائِمَاتِ تَرَامَى تَحْمِلُ المَوْتَ جَاثِماً والخَرَابَا

ومَلَأْتُمْ جَوَانِبَ النِّيلِ وَعْداً وَوَعِيداً، ورَحْمَةً، وعَذَابَا

وجاء نَظْمُ الشاعر/ حافظ إبراهيم كذلك على وزن بحر (البسيط التام)، وقد سمي بالبسيط: لانبساط الأسباب في أجزائه وتفعيلاته، فيقع سببان خفيفان في التفعيلة السباعة(مستفعلن)، وسبب خفيف في التفعيلة الخماسية(فاعلن)، كما في قوله [٢] :

ماذا يُرِيدُونَ لا قَرَّتْ عُيُونُهُمُ إنَّ الكِنَانَةَ لا يُطْوَى لَهَا عَلَمُ

كَمْ أُمَّةٍ رَغِبَتْ فِيهَا فَمَا رَسَخَتْ لَهَا عَلَى حَوْلِهَا فِي أرْضِهَا قَدَمُ

مَا كانَ رَبُّكَ رَبَّ البَيْتِ تَارِكُهَا وَهْيَ الَّتِي بِحِبَالٍ مِنْهُ تَعْتَصِمُ

كما جاء نظمه لشعر النيل على(بحر الوافر التام)في أكثر من قصيدة، ومن ذلك قوله[٣] :

وَكَمْ أحْيَيْتَ مِنْ أرْضٍ مَوَاتٍ فَأضْحَتْ تُسْتَرَادُ وتُسْتَغَلُّ

وأخْصَبَ أهْلُهَا مِنْ بَعْدِ جَدْبٍ وفَاضَ عَلَيْهِمُ رَغَدٌ وَنَفْلُ

كذلك فإن من البحور القليلة التي نظم الشاعر على وزنها (بحر الرَّمَل التام)، وقد سُئِل الخليل عن سبب تسميته له بالرَّمَل، فقال: لأنه شُبِّه بِرَمَلِ

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٢٣ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١٦٢ .

(٣) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٦٩ .

الحصير لِضَمِّ بعضه إلى بعض؛ وذلك لدخول الأوتاد بين الأسباب، وتفعيلاته هي:

**فاعلاتن فاعلاتن فاعلا  فاعلاتن فاعلاتن فاعلا**

ومن ذلك قوله (١) :

**أُمّةً قَدْ فَتَّ فِي سَـــاعِدِها  بُغْضُها الأَهْلَ وحُبّ الغُرَبَا (٢)**

**تَعْشَقُ الألقابَ فِي غَيْرِ العُلا  وَتُفـْدِي بالنُّفُوسِ الرّتَبَا**

**وَهْيَ والأَحْدَاثُ تَسْتَهْدِفُها  تَعْشَقُ اللَّهْوَ وتَهْوَى الطَّرَبَا**

وبناء على ذلك فقد تبين أن الإطار الموسيقي لشعر النيل عند حافظ إبراهيم يعتمد على الأوزان الطويلة، وأن طول هذه الأوزان جاء متوافقاً مع الحالات النفسية المختلفة، والتي تتنوع بين التفاؤل تارة، والفرح تارة أخرى، وكذلك البؤس والغضب تارة ثالثة، إلى غير ذلك من حالاته النفسية المتقلبة .

**٢- <u>موسيقى القافية :</u>**

مما لا شك فيه أن القافية من الأركان المُهِمَّةِ في إيقاع الشعر العربي، فهي عبارة عن مجموعة من الأصوات تتكرر في أواخر أبيات القصيدة، وهي بمثابة الفواصل الموسيقية، وقد تنبَّه القدماء إلى أهميتها؛ لأنها جزء أصيل من الموسيقى الشعرية، فهي قَسِيمةُ الوزن من جهةِ اختصاصِها بالشعر العربى؛ لأنها " مصدر الموسيقى، ومَنْشأ النغم والطرب فى القصيدة، حيث يستمتع القارئ أو السامع بترديدها عليه فى انتظامٍ فى نهاية كل بيت من أبيات القصيدة " (٣) .

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٧ .

(٢) فَتَّ في ساعدها: عبارة يُكني بها عن الإضعاف وإيهان القوى .

(٣) أوزان الشعر وموسيقاه بين الأصالة والتحديث، د/ محمد حسين عبدالحليم، ص: ١٧٩، ط: الأولى

فهذا ابن جِنِّي يرى أن " العناية في الشعر إنما هي بالقوافي؛ لأنها المقاطع، وفي السَّجْع كمثل ذلك، والقافية أشْرَفُ عندهم مِن أوَّلِها، والعنايةُ بِها أمَسّ، والحَشْدُ عليها أوْفَى وأهَم، وكذلك كلما تَطَرَّف الحرف في القافية ازدادوا عناية به، ومحافظة على حُكْمِه " [١] .

وقد أشار قدامة بن جعفر إلى الصفات الواجبة في القافية فقال: " يشترط للقوافي صفات موسيقية كالعذوبة، وسلاسة المخرج، وتصريع البيت الأول، حتى يكون الشاعر أبْعَد تأثيراً في سامعيه"[٢] .

فالقافية إذن لها علاقة وثيقة بموسيقى النص الشعري؛ لذلك يجب ألا يكون النظر إلى القافية بمعزلٍ عن بقية عناصر العمل الشعري، فيُفْصَل بينها وبين غيرها، ولذا فقد اهتم بها الأقدمون والمحدثون، فدرسوها دراسة وافية جادة، وجعلوا لها تعريفات خاصة مع دراستهم لموسيقى الشعر العربى، وكان من تعريفاتها أنها هي: "الصوت الذي ينتهي إليه تَدَافُعُ النغم داخل كل بيت أو جملة موسيقية"(٣)، إلا أن هؤلاء الدارسين اختلفوا فى تحديدها فى العمل الشعري، فمنهم من رأى أنها آخر كلمة فى البيت الشعري، ومنهم من رأى أنها الحرف الأخير الذى تبنى عليه القصيدة والذي يسمى بـ (الرَّوِيّ)، ومنهم من رأى أنها كل شيء يلزم إعادته فى آخر البيت الشعري، ومنهم من رأى أنها آخر ساكنين فى البيت الشعري وما بينهما والمتحرك الذى قبل الساكن الأول، ومن ذلك هذه الأبيات لحافظ إبراهيم،

---

سنة ١٩٩٤م .

(١) الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ص: ٨٤، ج: الأول، ط: الثانية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٩٥٢م .

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص: ٧٦ .

(٣) الأدب في العصر المملوكي الشعر والشعراء، د/ محمد زغلول سلَّام، ص: ١١، ج: الثالث، ط: منشأة المعارف، الإسكندرية ، د–ت .

ففي قوله :

إنْ ضَاقَ صَدْرُ النِّيلِ عَمّا هَالَهُ يَوْمَ الحَمَامِ فإنَّ صَدْرَكَ أرْحَبُ

وفي قوله [1] :

عَارٌ علَى ابْنِ النِّيلِ سَبّاقِ الوَرَى مَهْمَـا تَقَلَّبَ دَهْرُهُ أنْ يُسْبَقَا

وكذلك قوله [2] :

هَذا زَعِيمُ النِّيلِ حَلَّ عَرِيـنُهُ بَعْدَ الغِيـَابِ فيَا وفُودُ تَدَفَّقِي

فقد رأينا اعتماد الشاعر في أبياته السابقة على قافية مطلقة؛ حيث جاء الروي في البيت الأول متمثلاً في حرف(الباء) الذي نشأ عن إشباع حركة الضمة فيها واواً تسمى واو الوصل في كلمة (أرْحَبُ) .

وفي البيت الثاني: جاء الروي متمثلاً في حرف (القاف) المتحركة بالفتح في كلمة (يُسْبَقَا)، فنشأ عن إشباع حركتها ألف الوصل، وقد دَلَّ المَدُّ في هذا البيت على بيان حالة الشاعر المتألِّم بسبب تأخر أُمَّتِه ووطنه عن الأمم الأخرى، وقد سبقتهم الأمم كلها في كثير من الميادين .

كذلك في البيت الثالث: جاء الروي متمثلاً في حرف(القاف) الموصول بياء المد في كلمة (تَدَفَّقِي)، والذي جاء نتيجة إشباع حركة الكسرة التي تولدت عنها الياء .

أما القافية المقيدة في شعر حافظ –بصفة عامة–، وشعر النيل –بصفة خاصة– ، وهي التي يكون رَوِيُّهَا ساكناً، فهي قليلة الشيوع جداً في شعره؛ وذلك بسبب أن القافية المطلقة بلا شك تكون" أوضح في السمع، وأشد أسْراً للأذن؛ لأن الروي فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل في الإنشاد وتشبه حينئذ حرف

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٦٠ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ١١٩ .

المد"[١] ، ومن ثم فإن القافية جزءٌ مهمٌ من موسيقاه الشعرية، بها تتحقق وحدة القصيدة من خلال ملاءمتها لأواخر أبياتها مع التزامه بوحدة الوزن في كل قصائده ، وبذلك تكون موسيقاه الشعرية قد تكاملت في كل بيت من أبياته .

**ثانيا: الموسيقى الداخلية :**

تضَمَّنَ الشعر العربي الكثير من الأنماط الموسيقية التي ينفرد كل منها بتأثيرٍ خاصٍ على المتلقي، وعندما تجتمع هذه الأنماط الموسيقية مع بعضها البعض، تتحول القصيدة العربية إلى سيمفونية موسيقية .

هذه السيمفونية الموسيقية تجعل الشاعر يتمتع بإحساسه المُرْهف لأصوات اللغة التي تنبعث منها هذه الموسيقى الخفية الداخلية، وبذلك تَحْدُث عملية التناغم والتلاؤم والانسجام بين الحروف والحركات، ثم اختيار الشاعر للكلمات التي يكون نظمُها على نغمات التفعيلات، مِمَّا يزيد من إحساس المتلقي بالرَّنَّة الموسيقية .

فالموسيقى الداخلية تعني إذن:" كل ما من شأنه أن يوفر للقصيدة انسجاماً بنائياً، يعتمد على خاصيتي التكرار والتنوع"[٢]، وقد اهتم الشعراء بالموسيقى الداخلية على اعتبار أنها" قادرة على خلقِ جَوٍ من الموسيقى التصويرية المصاحبة للانفعال، وباعتبارها شكل موسيقي أقدر على الاتصال بالأحاسيس والانفعالات النفسية"[٣].

وبالتأمل في الأثر النفسي الذي نظم الشاعر شعره بسببه في نهر النيل، رامزاً له حيناً بشئ آخر، وحيناً آخر بواقعه الذي هو عليه، نجد أنه قد اجتمعت عنده عوامل كثيرة أشاعت في شعره جواً موسيقياً فاتِناً؛ بسبب ما كان يُوَفِّره لشعره من اختيار الألفاظ الموحية ذات الدلالات المعبرة بصوتها وجرسها عن نزعاته

(١) موسيقى الشعر د / ابراهيم انيس ط ٦ ص٢٨١ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٨ م .

(٢) موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس، ص: ٢٤٦، ط: السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨م .

(٣) لغة الشعر العربي الحديث(مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية)، د/ السعيد الورقي، ص: ٢٥٠، ٢٥١، ط: الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية ١٩٧٩م .

النفسية، وخلجاته العاطفية، كما شكَّلَت هذه الظواهر الموسيقية فيما بينها ذلك اللون من التناغم النفسي والعاطفي الذي جَسَّدَ كثيراً من مشاعره .

وقد تنوعت هذه الموسيقى الداخلية إلى نوعين هما: (الموسيقى الداخلية الخفية، والموسيقى الداخلية الظاهرة)، أما عن الموسيقى الداخلية الخفية فتتمثل في حروف المد، وتكرار بعض الحروف والألفاظ والتراكيب المعينة وملاءمتها لمعانيها، وعلاقة ذلك بإحداث نغمٍ مُعَين، واختيار الألفاظ ذات الإيحاء والظلال التي تُوحِي بما في نفْس الشاعر وما يَوَدُّ أنْ يُلقِيه للقارئ والمستمع، وكذلك توالي الحركات فى الكلمة الواحدة، وأما الموسيقى الداخلية الظاهرة فتتمثل في فنون علم البديع أو فى المحسنات البديعية كـ (التقسيم، والجناس، والطباق، وما شابه ذلك ) .

**١ – <u>الموسيقى الداخلية الخفية :</u>**

لقد تخير الشاعر/ حافظ إبراهيم الألفاظ التي ناسَبَتْ حركة النفس الشاعرة والمتألِّمة بسبب تأمله في أحداث الحياة الكئيبة التي عاشها، والتي عبَّرَتْ عن مشاعره بصدقٍ وسهولةٍ ويُسْر، وساعده على ذلك موسيقية الألفاظ في لغتنا العربية الجميلة، وقد اعتمد في ذلك على بعض الظواهر الموسيقية الخفية، ومنها :

**أ– <u>ظاهرة التكرار :</u>**

إنَّ مِمَّا يُشَكِّل الموسيقى الداخلية الخفيَّة – كماذُكِرَ قبل ذلك– **(ظاهرة التكرار)**، وذلك كتكرار الألفاظ أو بعض مشتقاتها التي تُحْدِث نغماً موسيقياً معيناً، يدل على الحالة النفسية التي أصابت الشاعر جَرَّاء ما حدث له ولوطنه، كما في هاتين الكلمتين (فتدَفَّقُوا، وتَدَفَّقَا) من قوله على وزن (بحر الكامل التام) :

**فَتَدَفَّقُوا حُجَجَاً وحُوطُوا نِيلَكُمْ  فَلَكَمْ أفَاضَ علَيْكُمْ وتَدَفَّقَا**

وكذلك تكرار كلمة (الكنانة) في قوله على وزن (بحر الكامل التام) :

**وابْنُ الكِنَانَةِ فِي الكِنَانَةِ رَاكِدٌ يَرْنُو بِعَيْنٍ غَيْرَ ذَاتِ طِمَاحِ**

وهاتان الكلمتان اللتان تم اشتقاقهما من بعضهما (صدْر، وصدرك) في قوله على وزن (بحر الكامل التام):

**إنْ ضَاقَ صَدْرُ النِّيلِ عَمَّا هَالَهُ يَوْمَ الحَمَامِ فإنَّ صَدْرَكَ أرْحَبُ**

وهكذا فقد أحَسَّ القارئ بتمَيُّز الموسيقى الخفية لشعر النيل، من خلال التشابه والتماثل وتكرار هذه الألفاظ وكذلك اشتقاق الألفاظ من بعضها، مما كان له أبعد الأثر في جذب المتلقي للتأمل في حالة الشاعر النفسية من خلال قراءته لشعره، كما أن لهذه الموسيقى الداخلية الخفية دورٌ له أهميةٌ كبيرةٌ في ائتلاف النغم وانسجامه وحسن وقعه على الأذن؛ لأنها تجعل الكثير من الجمل الموسيقية ذات أنغام بديعة .

**ب– ظاهرة الاشتقاق :**

استخدم الشاعر **(الاشتقاق)** في بعض الأساليب والكلمات من بعضها البعض؛ ليبعث بالإعجاب الذي يتدَفَّق في النفوس، كما في قوله على وزن (بحر الكامل التام) :

**أوَ كُلَّمَا قَالُوا تَجَمَّعَ شَمْلُهُمْ لَعِبَ الشِّقَاقُ بِجَمْعِنَا فَتَفَرَّقا**

**فَتَدَفَّقُوا حُجَجاً وحُوطُوا نِيلَكُمْ فَلَكَمْ أفَاضَ عَلَيْكُمُ وتَدَفَّقَا**

ففي البيت الأول اشتق هاتين الكلمتين (تَجَمَّعَ، وبِجَمْعِنَا) من بعضهما، وفي البيت الثاني: اشتق كلمتي (فتدفقوا، وتَدَفَّقا) من بعضهما أيضا .

**ج: ظاهرة الإيحاء اللفظي :**

إذا تأمَّلنا موسيقى هذه الألفاظ والعبارات، لوجدنا أن نغماتها الموسيقية تتباين مع بعضها البعض .

- فمنها ما يبعث على السُّرُور والفرح من مثل قوله على وزن (بحر الكامل التام) :

**مَا بَالُ دَنْدَرَةِ تَمِيسُ تَهَادِيَا  مَيْسَ العَرُوسِ مَشَتْ عَلَى إسْتَبْرَقِ**

**والنِّيلُ يَجْرِي مُتَهَلِّلاً  والمَوْجُ بَيْنَ مُهَلِّلٍ وَمُصَفِّقِ**

فقد رأينا أن الشاعر قد استخدم أسلوب الاشتقاق، فاشتق بعض الألفاظ من بعضها، كما في هذه الكلمات (تَمِيسُ مَيْسَ العروس)، وكذلك قوله: (مُتَهَلِّلاً والمَوْجُ بين مُهَلِّل) .

- ومنها ما يبعث على النفور والبغض والانقباض والوحشة، كما في قوله على وزن (بحر الكامل التام) :

**إنْ ضَاقَ صَدْرُ النِّيلِ عَمَّا هَالَهُ  يَوْمَ الحَمَامِ فإنَّ صَدْرَكَ أرْحَبُ**

وكذلك قوله على وزن (بحر الخفيف التام) :

**أُمَّهُ النِّيلِ أكْبَرَتْ أنْ تُعَادِي  مَنْ رَمَاهَا وأشْفَقَتْ أنْ تُعَادَى**

**لَيْسَ فِيها إلَّا كَلامٌ وإلَّا  حَسْرَةٌ بَعْدَ حَسْرَةٍ تَتَهَادَى**

ولا شك في أن المعنى الشعري له علاقة وثيقة بهذه الألفاظ المستخدمة، إذ إن لكل معنى من المعاني لون خاص من الألفاظ التي تختص به، وتكون أنْسَبَ لمضمونه ومحتواه؛ ولذلك فإن القارئ الفاحص المتأمل فيما سبق يلاحظ تكرارَ بعض الكلمات، مما يدل على شمولية الفجيعة وعموميتها، بالإضافة إلى تكرار بعض التراكيب المعينة في بقية القصيدة التي تكشف عن اللهفة والحسرة التى أصابت القلوب، ومن هنا يتبين أن جَرْسُ الحروف السابقة أوْجَدَ جواً موسيقياً يتمشى مع الحالة النفسية للشاعر .

**د: ظاهرة التضاد :**

كذلك لجأ الشاعر إلى أنواع أخرى من الموسيقى الداخلية الخفية، كأسلوب **(التضاد)**، كما في قوله على وزن (بحر الخفيف التام)[١] :

**وَمَلَأْتُمْ جَوَانِبَ النِّيلِ وَعْداً وَوَعِيداً وَرَحْمَةً وعَذَابَا**

فقد جمع الشاعر حشداً كبيراً من الألفاظ المتضادة كـ (الوعد، والوعيد) و(الرحمة، والعذاب)؛ ليوحي بما في نفسه من المرارة التي تُغَلِّف قلْبَه؛ بسبب خداع هذا الاحتلال البغيض .

وهكذا فقد أجاد الشاعر في اختياره للحروف والألفاظ والكلمات الموحية التي تكشف عن جانبٍ كبيرٍ من حالته النفسية، فجاءت الألفاظ مُعَبِّرةً أصدق تعبير عمَّا يدور بعواطفه ومشاعره، كما كان اهتمامُهُ جَلِيَّاً واضحاً إلى حَدٍ كبير بالإيقاع الموسيقي الخاص في كل كلمة من خلال مراعاته لترتيبها مع جارتها، بحيث يُؤلِّفُ من مجموع كلماته في قصائده الشعرية تناغُماً موسيقياً متكاملاً .

**٢ – الموسيقى الداخلية الظاهرة :**

بعد أن انتهى الباحث من الإشارة إلى بعض الشَّذَرات في النوع الأول من

(١) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٢٣ .

الموسيقى الداخلية، وهو المُسَمَّى بـ(الموسيقى الداخلية الخفية)، فإن من الجدير بالـذِّكْر أن يُلْقَـى الضـوء علـى النـوع الثـاني وهوالمُسَـمَّى بـ(الموسيقى الداخليـة الظاهرة)، ومن خلال الدراسة الفاحصة لهذه الموسيقى الظاهرة، تبين أنها تتحقق عن طريق عناية الشاعر بإيقاع اللفظ والاهتمام بنغماته، واستعماله لضروب البديع من تقسيمٍ، أو طباقٍ، أو مقابلة،...إلخ، بحيث يشعر القارئ الفاحص المتأمل والناقد كذلك بهذا الانسجام والإيقاع بين معاني الألفاظ وجرسها .

وقد وُجِدَتْ هذه المُحَسِّناتُ البديعيةُ في شعر النيل عند حافظ إبراهيم، ولكنها أتَتْ عنده في بعض الأحيان عفْوَ الخاطر دون تكلف، من أجل تزاوج أو تَنَاسُب المحسنات البديعية للمعاني؛ حتى يصل النظم الشعري للشاعر من خلال المُحَسِّن البديعي إلى الشكل الجمالي الرائق والمضمون الشعري الفائق، ومن هذه الأنواع على سبيل المثال لا الحصر :

**أ: حُسْن التقسيم :**

وتكمن قيمتُه في" السَّكْتَة المعنوية بما تحمل من معنى التأكيد ولَفْتِ النظر إلى الكلمة التي تَمَّتْ فيها، ومن ثم فهي بمثابة تثبيتٍ لكل صفةٍ من هذه الصفات على حِده، ثم تجتمع في النهاية في إطارٍ نَغَمِيٍّ متوازن يُمَثِّل لنا الصورة الموسيقية "[1]، فهو– أي التقسيم– يلعب دوراً مُهِماً في إبراز الموسيقى الداخلية، فجاء استخدامه لهذا اللون من ألوان الموسيقى الظاهرة، وهو **(حُسْنُ التَّقْسِيم)**، كما في قوله على وزن (بحر الكامل التام)[2] :

**وَدَوَى بِمِصْرَ لَكَ الدُّعَاءُ فَنِيلُهَا وسُهُولُهَا، وفَصِيحُهَا، والأعْجَمُ**

فقد عَلا الشاعر بموسيقاه من خلال استخدامه لحسن التقسيم في هذه

(١) التيار الإسلامي في شعر محمد رجب البيومي، عبيرعبد الصادق بدوي، ص: ٤٢٥، رسالة دكتوراة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣ م .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٢٩١ .

الكلمات التي أبدع في ضَمِّها لنظمِهِ الشِّعْرِي، وهي (نِيلُها، وسُهُولُهَا، وفَصِيحُها) .

**ب: الطِّبَاق :**

وهو " الجمع بين الشيء وضده فى الكلام، أو في بيت شعر، كالجمع بين الليل والنهار "[(١)]، ويُسَمَّى بـ(التضاد، أو المطابقة)، وقد استعان الشاعر بالطباق كأحد أبرز الألوان البديعية التي حرص عليها في نظمه لشعر النيل .

وهذا الطباق قد يكون بين (**اسمين**)، كما في قول الشاعر على وزن (بحر الكامل التام) [(٢)] :

**وَدَوَى بِمِصْرَ لَكَ الدُّعَاءُ فَنِيلُهَا وسُهُولُهَا وفَصِيحُهَا والأعْجَمُ**

حيث جاء الطباق بين النيل الذي يُقْصَد به هنا الماء، وبين السَّهْل الذي يُقْصَد به الأرضُ اليابسة المُنبسطة، ثم طابق بين الفصيح والأعجم؛ لكي يعطي لنا صورة عن عموم الدعاء الذي انطلق للخديوي عباس، تيمناً وتفاؤلاً بعودته بعد أداء مناسك الحج .

وقد يأتي الطباق بين (**مصدرين**)، ومن ذلك ما قاله مخاطباً الاحتلال الانجليزي على سبيل التهَكُّم والسخرية على وزن (بحر الخفيف التام) [(٣)] :

**ومَلأتُمْ جَوَانِبَ النِّيلِ وَعْداً وَوَعِيداً، ورَحْمَةً، وعذابا**

فهنا طابق الشاعر بين هذه المصادر (الوعد، والوعيد)، وهما متضادان؛ إذ إن الأول منهما وهو الوعد لا يكون إلا في الخير، أما الثاني وهو الوعيد فلا يكون إلا في الشر، ثم طابق أيضاً في نفس البيت بين (الرحمة، والعذاب)، والطباق

(١) علم البديع، د/ بسيوني فيود، ص: ١٣٨ .

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٢٩١ .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٢٣.

يكشف عن أسلوب الخداع والمكر الذي انتهجه الاحتلال ضد المصريين .

كما يأتي الطباق كذلك بين **(فعلين)**، كقول الشاعر/ حافظ إبراهيم على وزن (بحر الخفيف التام) [١] :

**تُؤْثِرُ المَوْتَ فِي رُبَا النِّيلِ جُوعاً وتَرَى العَارَ أنْ تَعَافَ المَقَامَا**

حيث طابق بين الفعلين (تُؤْثِر) بمعنى تَرْغَب وتُحِب وتُفَضِّل، وبين الفعل الآخر في الشطر الثاني (تَعَاف) بمعنى تُبْغِض وتكره، وهو بذلك يتعجب من التناقض العجيب في شأن المصريين تجاه وطنهم .

كذلك يأتي الطباق بين نوعين مختلفين كالطباق بين **(اسم، وفعل)**، كما فعل حافظ حينما طابق بين الاسم والفعل، فقال مخاطباً السلطان حسين كامل، مُشِيداً بفضله في عنايته بالفلاح المصري وأرضه على وزن (بحر الوافر التام)[٢] :

**وَكَمْ أحْيَيْتَ مِنْ أرْضٍ مَوَاتٍ فَأضْحَتْ تُسْتَرَادُ وتُسْتَغَلُّ**

**وأخْصَبَ أهْلُهَا مِنْ بَعْدِ جَدْبٍ وفَاضَ عَلَيْهِمُ رَغَدٌ وَنَفْلُ**

حيث طابق بين الفعل (أحْيَيْت) وبين الاسم (المَوَات) الذي وَصَفَ به الأرض، ثم طابق بين الفعل (أخصب) وبين الاسم (الجدب)، وهذا الطباق يُعْطِي معنى التَّغَيُّر الإيجابي والتَّحَوُّل الذي طرأ على أرض مصر وسكانها بسبب عناية السلطان بهم .

**ج: المقابلة :**

وهي: " أن يُؤتَى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يُؤْتَى بما يقابلهما،

(١) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٣١٦.

(٢) ديوان حافظ، ج: الأول، ص: ٦٩ .

أو يقابلها على الترتيب"(١)، وهي من الخواطر التي تَكْمُن في بعض الطبائع البشرية؛ لأثرها الواضح في تزيين الكلام وتجميل المعاني، وبذلك تثبت في أذهان المتلقين، وقد وُجِدَت المقابلة في شعر النيل عند حافظ إبراهيم كقوله على وزن (بحر الكامل التام)(٢):

**إنْ ضَاقَ صَدْرُ النِّيلِ عَمَّا هَالَهُ يَوْمَ الحَمَامِ فإنَّ صَدْرَكَ أرْحَبُ**

فقد عقد الشاعر هنا مقابلة ساخرة فيها من التهكم والاستهزاء بهذا المُحتل البغيض، وقابل فيها بين ضِيق صدر الأمة بسبب أحوالها المُتَرَدِّية وبين سِعَة صدر المحتل الذي برع في الخداع والكذب، وهذا إن دَلَّ فإنما يدل على مدى ما غَلَّفَ فؤاده من الألم النفسي .

**د: السَّجْع :**

وهذه الظاهرة الموسيقية قد تحققت عند حافظ إبراهيم عندما استخدم بعض الألفاظ المسجوعة كهاتين الكلمتين (مُرْتَهِب، ومُرْتَقِب) من قوله على وزن (بحر البسيط التام)(٣) :

**مَتَى أرَى النِّيلَ لا تَحْلُو مَوَارِدُهُ لِغَيْرِ مُرْتَهِبٍ للهِ مُرْتَقِبِ؟**

وفى نهاية المطاف بعد دراستنا للجانب الموسيقي في شعر النيل عند حافظ إبراهيم، يتضح أن الشاعر قد حقق كلاً مِن الموسيقى بنوعيها، الخارجية المتمثلة في(الأوزان والقوافي)، وكذلك الموسيقى الداخلية بنوعيها (خفية كانت أم ظاهرة) في قصائده، مما يدل على أن الموسيقى الشعرية قد أتَتْ عنده على نحوٍ متناغمٍ

(١) جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمى، ص: ٢٩٢، ط: مكتبة الأصوالى .

(٢) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ٢٣ .

(٣) ديوان حافظ، ج: الثاني، ص: ١١٨ .

تألَفُه الآذان، وتلتذ به الأنفُس، وقد اعتمد فى ذلك على عروض الشعر العربي وبحوره الخليلية، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدل على تأثُّرِهِ بحاله من صغره حتى كَبُرَ سِنُّه، وكذلك تَمَسُّكه واعتزازه بوطنه، وذلك إيماناً منه بأن عروض الشعر العربي القديم يحمل الأصالة الفنية لتراثنا الأدبي فى فن العربية الأول، فكانت موسيقاه في مجملها موسيقى ذاتية خالصة، انطلق بها من موهبةٍ رزقه الله إياها، هذه الموهبة تتمثل في حُسْنِ اختيارِهِ للفظه المنغوم، وجودة إلقائه المتميز في شعره، وقدرته الفائقة بهذا الإلقاء على التأثير في جمهوره .

وبهذا يتبين بعد هذا العرض للموسيقى بنوعيها–الخارجية والداخلية– أن كلاً منهما قد أحدَثَ أثراً عظيماً في معالجة الشاعر لقضيته التي يتناولها، كما دَلَّتْ موسيقاه على أصالته الشعرية، وملكته الفنية، وامتلاكه لناصية الإبداع والإيقاع الشعري المُنَغَّم .

## الخاتمة

بعد هذا الانسياح الأدبي في محيط هذا البحث، تبَيَّنَ أنَّ هذه الدراسة لشعر النيل عند حافظ إبراهيم بين الرمزية والواقعية، قد كشفت عن الأثر النفسي على فكر ووجدان الشاعر، وعلاقته به، ومشاركته في الأحداث من حوله، وأثره على المجتمع والاستعانة به في الكثير من القضايا والأزمات التي تخص الأمة المصرية، وقد تجَلَّتْ في هذه الدراسة بعض المشاعر والعواطف الوجدانية التي كانت معبرةً أصدق تعبير عن نبض الأمة وواقعها الذي كانت تحياه آنذاك .

لم يكن النيل عند شاعر النيل مجرد ظاهرة طبيعية، أو مجرى مائي، بل كان رمزاً للحضارة التاريخية للدولة المصرية، ولذلك جاءت نظرته إلى النيل في كثير من الأحيان على اعتبار أنه رمزٌ للدولة المصرية، جعلت شعره يأتي في صورةً واضحةً موحيةً عن طريق الإيماء والرمز والإيحاء حيناً، وعن طريق الواقع والحقيقة حيناً آخر .

جاء حديث حافظ إبراهيم في نهر النيل طريقاً لعرض أحزانه وبث شكواه؛ بسبب ما آل إليه حاله، وحال المجتمع المصري آنذاك من البؤس والشقاء، فوجد من خلال مخاطبته لنهر النيل صاحبه الوفي الذي يشاركه في جَلَلِهِ ومُصَابِه، وبَثِّ هُمُومِهِ وأحزانه، فيُفْضِي إليه بمكنون نفسه؛ لكي يخفف عنه ما أصابه من هَمِّهِ وحزنه .

جاء القاموس الشعري عند الشاعر مُفْصِحاً عن تأثره الواضح بالاتجاه التقليدي من خلال اقتباسه لألفاظه من التراث أحياناً، وتأثره أيضاً في أحيانٍ أخرى بالاتجاه الوجداني، حينما تغلب عليه الحالة النفسية السيئة التي سادت على معظم شعره، وهويعالج قضيته بين الرمزية أحياناً، والواقعية في أحيان أخرى، فكانت ألفاظه سهلة رقيقة واضحة قوية، بعيدة عن الغموض والإسفاف والغرابة .

جاءت السمات الأسلوبية عند الشاعر معبرة عن قدرته على التنويع بما

يتناسب وطبيعة الموضوع الذي يتناوله؛ لذلك كان أسلوبه يتنوع بين الرِّقَّة والجزالة، والقوة والرصانة، فعالج قضيته بأسلوب واقعي حيناً وعن طريق الإيحاء والرمز حيناً آخر، وهذا الأسلوب نابع من حالةٍ نفسية ثائرة، فطغى عليه الجانب الفلسفي في بَثِّ حِكَمِه، واستبطان بواطن الأمور .

جاء شعر حافظ إبراهيم مُعَبِّراً عن تجارب صادقة ومعاناة حقيقية، ومن ثم اكتملت له بواعثه الفنية، فجمع بين الذاتية والوجدانية، بمعنى أن ما يشعر به الفرد إنما هو صورة مصغرة لشعور الجماعة .

لم تكن المعالجة في هذا البحث معتمدةً على الظواهر الموضوعية وفقط ، بل اشتملت أيضا على ظواهر فنية منها ما يشتمل عليه المعجم الشعري كاختيار الألفاظ والأساليب وكذلك التجربة والعاطفة والموسيقى بنوعيها الداخلية والخارجية .

## المصادر والمراجع


- القرآن الكريم .
- الحديث النبوي الشريف .

١- إبراهيم ناجي، د/ علي محمد الفقي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

٢- ابن نباته المصري أمير شعرا المشرق، د/ عمر يوسف باشا، ط:الثانية، دارالمعارف د/ ت .

٣- الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر، د/ عبدالقادر القط، ط: مكتبة الشباب ١٩٧٨م .

٤- الأدب العربي الحديث، د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، ط: الأولى، دار الجيل ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

٥- الأدب العربي المعاصر في مصر د/ شوقي ضيف، ط: دار المعارف .

٦- الأدب في العصر المملوكي الشعر والشعراء، د/ محمد زغلول سلَّام،ج: الثالث، ط: منشأة المعارف، الإسكندرية ، د-ت .

٧- الأدب وفنونه، د/ محمد مندور، ط: مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٦١م .

٨- الأدب ومذاهبه، د/ محمد مندور، ط: مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

٩- الأسلوب، أحمد الشايب، ط: الثامنة، مكتبة النهضة العربية، د- ت .

١٠- الأصول الفنية للأدب، عبدالحميد حسن، ط: الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م .

١١- التفسير النفسي للأدب، د/ عز الدين إسماعيل، ط: الرابعة، مطبعة غريب، القاهرة

١٢- التيار الإسلامي في شعر محمد رجب البيومي، عبيرعبد الصادق بدوي،

رسالة دكتوراة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣ م .

١٣- الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: الاستاذ /عبدالسلام محمد هارون مطبعة الحلبي القاهرة د / ت

١٤- الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ج: الأول، ط: الثانية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٩٥٢م .

١٥- الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، ص: ٧، ط: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت- لبنان ١٩٤٩م .

١٦- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ، مصطفى عبد اللطيف السحرتي، ط: المقتطف والمقطم ١٩٤٨ م .

١٧- الشوقيات، شعر أحمد شوقي في المجلد الأول، ج: الأول .

١٨- الصورة الأدبية تاريخ ونقد، د/ علي علي صبح،ط: إحياء دار الكتب العربية، د-ت .

١٩- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د/ جابر عصفور،ط: دار المعارف .

٢٠- الصورة الفنية معياراً نقدياً، د/ عبد الإله الصايغ، ط : الأولى، مطبعة وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٧ م .

٢١- الصورة والبناء الشعري، د/ محمد حسن عبدالله، ط: دار المعارف ١٩٨١م .

٢٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ج: الأول، ط: الرابعة، دار الجيل، بيروت، لبنان ١٩٧٢م .

٢٣- اللُّمَع في التصوف، السراج الطوسي، ط: مكتبة القاهرة ١٩٦٠م .

٢٤- المطولات الإسلامية في شعر مرسي شاكر الطنطاوي (دراسة تحليلية فنية)، د/ هشام محمد البيه، ط: الأولى، مطبعة الشروق ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م .

٢٥- النقد الأدبي الحديث، د/محمد غنيمي هلال، ط:دار الثقافة ودار العودة بلبنان ١٩٧٣ م .

٢٦- النقد التحليلي، محمد محمد عناني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د- ت .

٢٧- النيل في الأدب المصري، د/ نعمات أحمد فؤاد، ط: دار المعارف ١٩٦٢م .

٢٨- النيل في عصر المماليك، د/ محمود رزق سليم، ط: دار القلم، القاهرة ١٩٦٥ م .

٢٩- النيل في عهد الفراعنة، أنطوان زكري، ط: الأولى، مكتبة مدبولي،القاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٣٠- النيل والمجتمع المصري في عصر المماليك، د/ قاسم عبده قاسم،ط:الأولى، دار المعارف ١٩٧٨م .

٣١- الواقعية وتياراتها في الآداب السردية الأوربية، د/ الرشيد بو شعير، ط: الأولى، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٦م .

٣٢- أوزان الشعر وموسيقاه بين الأصالة والتحديث، د/ محمد حسين عبدالحليم، ط: الأولى سنة ١٩٩٤م .

٣٣- تاريخ الامم والملوك – تاريخ الطبري– للامام الفقية المفسر المؤرخ/ أبوجعفر محمد بن جرير الطبري،إعتني به أ/ أبوصهيب الكومي،ط: بيت الأفكار الدولية د- ت .

٣٤- تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام

الحرب الكبرى الثانية، د/ أحمد هيكل، ط: السادسة، دار المعارف ١٩٩٤م .

٣٥- جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمى، ط: مكتبة الأصوالى .

٣٦- حافظ ابراهيم شاعر النيل، د/ عبدالحميد سند الجندي، ط: دار المعارف، د-ت .

٣٧- خصائص الشعر الحديث، د/ نعمات احمد فؤاد، ط: دار الفكر العربي، د-ت .

٣٨- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، ط: الرسالة، مصر ١٩٤٥م .

٣٩- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط: الثالثة، المدني، القاهرة، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ- ١٩٨٨م .

٤٠- ديوان ابن نباته، تأليف: محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المصري،جمع: محمد بن إبراهيم أبوالبقاء بدر الدين الأنصارلي البشتكي، ط: الإعلام، الضوء اللامع د- ت .

٤١- ديوان البهاء زهير، ط: دار بيوت للطباعة والنشر ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .

٤٢- ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه أ/ أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، ط: دار العودة للصحافة والطباعة والنشر، بيروت د-ت .

٤٣- شاعر يرثي نفسه، د/ محمد عبدالمنعم محمد عبدالكريم(العربي)، ط:الأمانة ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م .

٤٤- شعراء الوطنيه في مصر، أ/ عبدالرحمن الرافعي، ط: الثالثة، دار المعارف ١٩٤٥م .

٤٥- صورة النيل في شعر حافظ إبراهيم (دراسة تحليلية نقدية)، د/ جمال عبدالنبي حسانين، ط: الأهرام، القاهرة ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م .

٤٦- عصر الدول والإمارات، د/ شوقي ضيف، ط: دار المعارف، د/ ت .
٤٧- عضوية الموسيقى في النص الشعري، د/عبدالفتاح صالح، ط: دار المنار، الأردن ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .
٤٨- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د/ بسيوني فيود، ط: الرابعة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م .
٤٩- علم المعاني، د/ درويش الجندي، ط: دار نهضة مصر .
٥٠- عيار الشعر ، محمد أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق: عباس عبدالساتر، نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .
٥١- فتح الباري على شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، جـ: السابع، ط: دار الريان للتراث ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦م .
٥٢- قضايا النقد الأدبي الحديث،د/ محمد السعدي فرهود،ط: زهران، مصر ١٩٦٨م .
لغة الشعر العربي الحديث(مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية)، د/ السعيد الورقي، ط: الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية ١٩٧٩م .
٥٣- مجلة أبولو، المجلد الأول، عدد: يوليو ١٩٣٣م .
٥٤- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة – وكامل المهندس ، ط : الثانية، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤ م .
٥٥- معروف الرصافي بين الأصالة والمعاصرة ، د/ عبد الوارث الحداد ، ط: دار السعادة ، المنصورة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م .
٥٦- مقالة (في المذهب الرمزي)،د/ بشر فارس، مجلة الرسالة ١٩٣٨م، عدد: ٢٥١.
٥٧- مقدمة ابن خلدون، تحقيق: حجر عاصي، ط: دار الهلال، بيروت ١٩٨٨م

.

٥٨- منتخبات من الأدب العربي الحديث (دارسة فنية)، محروس منشاوي الجالي، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، د/ ت .

٥٩- موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس، ط: السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨م

٦٠- ميزان الذهب في صناعة شعر العرب أ/ السيد احمدالهاشمي، ط: المكتبة التجارية د/ ت.

٦١- ميزان النقد الأدبي، د/ طه أبو كريشة، ط: المليجي ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦ م .

٦٢- نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، ط: الأولى، الخانجي .

٦٣- نيل الرائد في النيل الزائد، للحجازي/ بدر الدين أحمد بن محمد بن علي ت ٨٧٥، ط: دار الكتب المصري د / ت .

## فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة : | ٨٦٧ |
| التمهيد : ( النيل: الماهية، والدوافع )، ويشتمل على : | ٨٧١ |
| – أثر النيل في الحياة المصرية . | ٨٧٣ |
| الفصل الأول: نهر النيل وأثره النفسي على قلب حافظ إبراهيم | ٨٧٧ |
| المبحث الأول: المواطن النفسية العامة | ٨٨٠ |
| أولاً: مأساة الاحتلال على المصريين . | ٨٨٠ |
| ثانياً: المكر والمراوغة والافتراء . | ٨٨٣ |
| ثالثاً: انتقاد مآخذ المجتمع المصري . | ٨٨٥ |
| المبحث الثاني: المواطن النفسية الخاصة | ٨٩٠ |
| أولاً: نشأته . | ٨٩٠ |
| ثانياً: ارتحاله واغترابه . | ٨٩٣ |
| ثالثاً: التعلق العاطفي بأمته . | ٨٩٤ |
| رابعًا: افتقاره ونكباته . | ٨٩٦ |
| الفصل الثاني: نهر النيل بين الرمزية والواقعية في شعر حافظ إبراهيم. | ٨٩٩ |
| المبحث الأول: الرمزية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم . | ٩٠٠ |
| المبحث الثاني: الواقعية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم . | ٩٠٦ |
| الفصل الثالث: من الجوانب الفنية في شعر النيل عند حافظ إبراهيم. | ٩١٣ |
| المبحث الأول: التجربة الشعرية . | ٩١٤ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| المبحث الثاني: المعجم الشعري. | ٩٢١ |
| أولاً: الألفاظ . | ٩٢٢ |
| ثانياً: الأساليب . | ٩٢٥ |
| ثالثاً: المعاني . | ٩٢٨ |
| المبحث الثالث: الصورة الفنية. | ٩٣٤ |
| أولاً: طبيعة الصورة، وتنقسم إلى : | ٩٣٥ |
| ١- الصورة المفردة . | ٩٣٥ |
| ٢- الصورة الجزئية . | ٩٣٦ |
| ٣- الصورة المركبة . | ٩٣٧ |
| ٤- الصورة الكلية . | ٩٣٧ |
| ثانياً: وسائل تشكيل الصورة الفنية. | ٩٣٩ |
| ١- الصورة التشبيهية . | ٩٣٩ |
| ٢- الصورة الاستعارية . | ٩٤٢ |
| ٣- استخدام الكناية . | ٩٤٤ |
| المبحث الرابع: الموسيقى الشعرية | ٩٤٩ |
| أولاً: الموسيقى الخارجية، وأنواعها : | ٩٥١ |
| ١- موسيقى الوزن . | ٩٥١ |
| ٢- موسيقى القافية . | ٩٥٧ |
| ثانياً: الموسيقى الداخلية. | ٩٦٠ |
| ١- الموسيقى الداخلية الخفية | ٩٦١ |
| أ- ظاهرة التكرار . | ٩٦١ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| ب–ظاهرة الاشتقاق . | ٩٦٢ |
| ج– ظاهرة الإيحاء اللفظي . | ٩٦٣ |
| د– ظاهرة التضاد . | ٩٦٤ |
| ٢– الموسيقى الداخلية الظاهرة، وتشتمل على : | ٩٦٤ |
| أ– حسن التقسيم . | ٩٦٥ |
| ب–الطباق . | ٩٦٦ |
| ج– المقابلة . | ٩٦٨ |
| د– السجع . | ٩٦٨ |
| الخاتمة . | ٩٧٠ |
| المصادر والمراجع . | ٩٧٢ |
| فهرس الموضوعات . | ٩٧٨ |